إطلالة من ماسبيرو
(رواية)

داليا العطار



سلسلة كتاب طيوف

المشرف الأدبي

السيد حسن

المدير التنفيذي

هناء أمين

الكتاب: إطلالة من ماسبيرو

اسم المؤلف: داليا العطَّار

التصنيف: رواية

تدقيق لغوي: عبدُ الله السَّـبع

المقاس: ١٤x ٢٠

رقم الإيداع : ٢٠٢٣/١٣٩٧٢م

الترقيم الدولي: 978-977-6999-50-3

العنوان: ٢٩٨ شارع فيصل – محطة ضياء

موقعنا على الفيس بوك: سلسلة كتاب طيوف

الإهداء

إلى...

- روح والدى الحبيب
- والدتى الحبيبة
- أخى
- روح والدة زوجى
- زوجى وأولادى (عمر وكريم)
- إخوتى(أخوات زوجى)
- أفراد عائلتى الكبيرة
- أصحابى
- من أهدونى من وقتهم الثمين لقراءة روايتى.

داليا

شكر وتقدير

لزوجى العزيز

الذى وضع لى عنوان الرواية

* * * *

شكر خاص

للإذاعى الأديب مرسى عبد العليم

على التشجيع والدعم

المقدمة

تدور أحداث تلك الرواية خلال فترة السبعينيات، حيث
خاض
أبطالها حروباً حقيقية سجلها التاريخ، ومعاناة حياتية
لا يقوى على الصمود أمامها إلا أناس يستحقون أن
تكتب أسماؤهم بحروف من ذهب.

داليا العطار

الفصل الأول

.. تتبدَّل الأبنية، تتغيَّر الملامح، ترتقِي الأماكن.. وتبقَىٰ الذكريات.
.. بالأمسِ كانتْ عشوائيات، واليوم علَت البِنايات.. وتبقىٰ الذكريات.
.. تندَثِر الآثار، ويَرحل الأبطال.. وتبقَىٰ الذكريات.

ماسبيرو.. إطلالة علىٰ النيل، وكذلك إطلالة علىٰ أُناسٍ يتمتعون بقلوبٍ طيبة، يسكنون بُيوتًا توارثوها أبًّا عن جَد. سكنَها أجدادُهم ثم آباؤهم، وربَّما كان سيسكنُها أولادُهم من بعدِهم؛ فقد كانوا يرتبطون بجُدرانِها المتهالكة.. التي لا يعرفون لهم مسكنًا سواها.

بدأَتْ قصة وجودِهم في تلك المنطقة منذ أربعينيات القرن الفائت، عندما خصَّص شركس باشا (أحد الأعيان في ذلك الزمن) جزءًا من أرضه لخَدَمِه والعاملين لديه؛ ليبنوا عليها منازلهم.
وقبل أن يُغادرَ شركس باشا البلاد بعد ذلك بأعوام؛ أوقَف ذلك الجزء من الأرض لصالح مَن يعيشون عليها لمدة عشرين عامًا أخرىٰ.. علىٰ أمل أن يعودَ لاحقًا، غير أنه تُوفِّي في الخارج ولم يَعُد.

ولا يَفصل تلك المنطقة عن حي الزمالك الراقي؛ مقرِ سكن الباشاوات، والفنانين: أم كلثوم، محمد عبد الوهاب، عبد الحليم حافظ.. وغيرهم، إلا كوبري أبو العلا؛ الذي صمَّمه وأَشرف على بنائه المهندس الفرنسي "جوستاف إيڤال". وهو المهندس نفسُه الذي قام ببناء برج "إيڤل" في باريس، وافتُتح عام ١٩١٢م.

أما مبنى ماسبيرو – الذي يَبْعُد عن حي الزمالك عدة أمتار – فواجهتُه تُطِلُّ على النيل، بينما يرتفع بنيانُه ليحجِبَ خلفَه بناياتٍ ضعيفة؛ تحمِلُ أسرارًا وقصصًا عديدة، وتضمُّ قلوبًا تحمِلُ آمالا وتطلعاتٍ لمستقبل أفضل.

.. إنه عالمٌ آخر مَليءٌ بالأسرار ؛ يستيقظُ أصحابُه كل يوم على إطلالة لا تختلِف عن تلك الإطلالة التي يُشاهدها قاطنو حي الزمالك؛ حيث النيل الذي يَلتقي العُشَّاق على ضفافِه من الجانبين؛ والذي لا يُفرِّق بين الأغنياء والفقراء!

فقد اعتاد الجميع أن يَجلسوا على المقاعد المصنوعة من الحجر الأبيض.. يشربون المياه الغازية صيفًا، ويأكلون كيزان الذرة المشوية شتاءً.

إنهم طلبةٌ وطالباتٌ لا يزالون في مراحل الدراسة

الجامعية، ويحلمون بوظيفةٍ بعد التخرج، حتى يتقدَّمَ الشابُ منهم لخِطْبة فتاة أحلامه؛ ليبدآ معًا مشوار الكفاح.

.. يعملان حتى يستطيعا تلبية الاحتياجات الأساسية، ويذهبان إلى منزل عائلتيهما معظم أيام الأسبوع؛ ليوفِّرا بعض المصاريف، ويقترضان من الأهل الذين – برغم أنهم يعيشون بالكاد – لا يجدون غَضاضةً في مساعدة أبنائهم وبناتهم بكل ما يملكون!

وبعضُهم قد يبتسِمُ له الحظُّ؛ فيُرزَق بعقد عمل في إحدى دول الخليج.. فيسافرَ، ثم يعود وقد اقتنى جهازَ ڤيديو، وتلڤزيونًا مُلوَّنًا صغير الحجم؛ مُزوَّدًا بإريال أعلاه!

وقد يشتري سيارة، ويبدأ في تجديد ديكور منزله، وأهم ما يبدأ به هو: نَسف حمَّامِه القديم، وشراء طقم سيراميك "جراڤينا"، ولصق ورق حائط، وفَرش موكيت على الأرضيات!

ثم يَقْصُد بعض الجيران والأصدقاء أهل المغترب – العائد وقد تحسَّنتْ أحوالُه المعيشية، وبدَتْ عليه آثارُ النّعمة – مُوسِّطينَ إياه؛ علَّه يَقدِر على توفير فرصة عمل لأحد ذويهم.

.. فيُبادر أهلُ المغترب مُسبَقًا بالشكوى من صعوبة حياةِ ابنِهم العائد للتو من الخليج؛ ليَصدُّوا عنه العين والحسد!

ثم – علىٰ استحياء – يُلحِّون عليه؛ كي يبحثَ عن "عقد عمل" لمَنْ قصدَهم!

.. تلك كانت طبيعة الحِقبة الزمنية، خلال فترتي سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي. وكانت تلك هي أقصىٰ الطموحات التي كان يسعىٰ إليها أبناء الشعب المصري الحبيب، الصابر، الصامد.. رغم المحن والصعوبات التي واجهته في الماضي والحاضر.

.. الشعب المصري؛ صاحب البطولات والانتصارات العسكرية.. والتي لم يَخلُ بيتٌ فيك يا مصر العراقة والتاريخ؛ لم يُقدِّم ابنًا من أبنائه فداءك.

يا مِصْرُ:

- يا مَن خصَّكِ الرحمنُ بالذكرِ في كتابه الكريم.
- ويا مَن تَزوَّج من أهلِكِ:

الخليلُ إبراهيم، والرسولُ الكريم محمد (صلَّىٰ الله عليهما وسلم).

- ويا مَن مَرَّ بأرضِكِ: عيسىٰ وأُمُّه العذراء.
- ويا مَن احتضنَتِ مِن الأنبياء: موسىٰ ويوسف.

.. إنها مِصْرُ الكِنانة؛ التي سيبقَىٰ شعبُها في رِباطٍ إلىٰ يوم الدين.

الفصل الثاني

إنه يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٧م. كان يومَ إجازة رسمية في المدارس والجامعات والمصالح الحكومية.. لكن إذاعة جمهورية مصر العربية ليست كباقي الجهات الحكومية؛ بل إن طبيعة عمل موظفيها تختلِفُ عن طبيعة أعمال باقي الموظفين؛ حيث إنهم يعملون في (شيفتات) علىٰ مدار الساعة.. ويُسلِّمونها لبعضِهم البعض.

وقد تتطلَّبُ ظروف عملِهم أن يكونوا موجودين خلال فترةِ الفجر؛ فيتبادلَ العاملون تلك الشيفتات بالتناوب فيما بينهم علىٰ مدار الأسبوع. حيث تُقلُّهم سيارة الإذاعة من مساكنهم – لصعوبة توافر مواصلات – في ذلك الوقت المُبكِّر.. والذي قد يُوافق يوم شتاءٍ أو بردٍ قارس!

.. تلك هي طبيعة عمل الإذاعيين من: مُحرري الأخبار، والعاملين علىٰ الآلات الكاتبة، والمذيعين والمذيعات.

إنها رسالة سامية، ومسئولية كبيرة: انتقاء الأخبار من (التيكرز)؛ الذي كان أشبه بجهاز الفاكس، وعبرَه ينهمِرُ سيلٌ من الأخبار التي تَبُثُّها وكالات الأنباء

العالمية؛ منها الصديق ومنها المُعادِي لسياساتنا الوطنية.

ومن بين الأخبار ما يَخُصُّ علاقاتنا الثنائية مع بلدان إفريقية وأوربية ودول الأمريكتين؛ حيث تُبَثُّ لهم خِصيصًا برامج من هذا الصَّرح العظيم: (ماسبيرو).

اصطحبَت السيدة الثلاثينية – التي تعمل في تحرير وترجمة الأخبار – ابنتَها الصغيرة معها إلى داخل مبنى الإذاعة.. فقد تعلَّقتْ بها الابنةُ مترجيةً الذهاب معها إلى عملها؛ حيث اعتادَت الطفلة في كل زيارة لها لماسبيرو أن تُشاهِدَ أحد مشاهير الفنانين.. تنظر إليه عن قرب؛ فيُداعبَها، وأحيانا يقترِبُ منها ليُقبِّلَها، أو يتحدَّث إليها.. فتفرح!

وفي اليوم التالي تحكي لزميلاتها في المدرسة ما حدث لها بالأمس. ولمَّا يصل الخبر لمُعلِّمتِها؛ تطلب منها المُعلِّمةُ أحيانًا أن تحكيَ أمام الصف الدراسي باللغة الفرنسية – حيث كانتْ تَدرِسُ في مدرسة (ليسيه الزمالك) – ما وقَع معها، وما شهدتْه في ماسبيرو.

وقد حكَتْ لهم عن: نور الشريف، ومحمود ياسين، ونجلاء فتحي، وعن الجميلة نيللي.. بطلة فوازير رمضان.

أما أفضل أوقاتها في ماسبيرو؛ فكان إذا صادف وقت فحص الأفلام التي ستُجَاز للبَثِّ على شاشة التلفزيون

في الأيام التالية؛ حيث كانت الأفلام تُعرَض علىٰ لجنةٍ للتأكُّد من صلاحية الشرائط للعرض.

كانتْ تلك الطفلة الشقية شغوفةٌ بالتلِفزيون والاستوديوهات. وقد ساعدتها ملامحُها البريئة علىٰ أن تخطِفَ قلوب الناس. وكانت بمجرد أن تمرَّ إلىٰ داخل هذا الصرح؛ تسلُك طريقَها من خلال زملاء والدتِها الذين يعملون داخل الاستوديوهات.. فتتعلَّق بهم راغبةً في مرافقتهم؛ فتُفتَحُ لها أبوابُ تلك الاستوديوهات، بعد أن يأخذوا عليها عهدًا بأن تلتزمَ الصمت أثناء التصوير؛ وإلا فلن يُسمَحَ لها بالدخول مرةٍ أخرىٰ!
.. وبذلك كان يُتاح لها حظٌّ وفير من اللقاءات بـ "ماما نجوىٰ"، و"بُقلظ"؛ الفنان "سيد عزمي"، و"بابا ماجد" ذي الابتسامة الجميلة.

إلىٰ أن جاء يومٌ كان مُختلِفًا. يوم أن قابلتْ العلَم الإذاعي، صاحبةَ الصوتِ العذب، والقصص التربوية: "أبلة فضيلة"؛ والتي كانتْ الطفلة – مثل الآلاف غيرِها – تنتظرُ برنامجَها "غِنوة وحدوتة".. وكانت "أبلة فضيلة" تستهلُّه دومًا بجملة: "حبايبي يا حلوين"!
وكم زرعت فيها تلك السيدة الكثير من القيم والأخلاق

الحميدة.. فما أجمل أن يكونَ الفنُ رسالة سامية، يُربِّي أجيالا من العظماء!

"ليه خلتيها تشوفني.. هي أكيد كانت راسمة صورة ليَّ في خيالِها مختلِفة". هكذا قالت أبلة فضيلة لصديقتِها أمام الابنة الصغيرة!

لم تنس الطفلة قَطُّ ذلك الموقف، ولن تنسىٰ أبدًا تلك الملامح الطيبة؛ فقد حرَصت علىٰ أن تختزنَها في ذاكرتها.. كي تستطيعَ أن تَصفَها إلىٰ أصحابها ومُدرسيها في اليوم التالي!

ورغم أن أبلة فضيلة كانت مُحقَّة؛ عندما قالت إن هناك صورة مرسومة في خيال الطفلة.. الا ان الطفلة كانت تعلَم جيدًا الفرق بين الخيال والحقيقة؛ وقد تقبَّلت وأحبَّت الحقيقة.

هكذا استهلَّت الطفلة الصغيرة يومَها الحافل بذلك اللقاء الذي حُفِر في ذاكرتِها إلىٰ اليوم.. وهي تصعد درجات السُّلَّم الرُّخامية في المبنىٰ العريق؛ إلا أن ما كان ينتظرُها بداخله من حكايات حقيقية.. كان له أعمق الأثر في قلبِها وخيالِها الخصب، حتىٰ إن قلبَها الذي تعلَّق بأهل الفن والفنانين؛ أصبح مُتعلِّقا بأبطالٍ حقيقيين.. عاشت معهم قصتهم.

الفصل الثالث

إنه يوم النصر الذي تحتفِلُ به البلاد كل عام، الإذاعة تَبُثُّ فيه الأغاني الوطنية: "بسم الله.. الله أكبر، بسم الله.. بسم الله". وكانت تلك الكلمات تَهُزُّ كِياني عند سماعِها.

أما أغنية "وأنا علىٰ الربابة با أغني"؛ فكنتُ أتخيَّل الفنانة الجميلة "وردة".. وهي فعلا تحمِل الربابة في يدها وتُغنِّي!

أما أغنية "عاش إللي قال" للعندليب؛ فكانت تُشعرني بالعِزَّة.. خاصةً عندما يقول: "رَدّ اعتبارك.. خلَّىٰ نهارك أحلىٰ نهار". وقد كنتُ أسمَع مِن أمي عن حجم المحنة التي مرَّت بالبلاد، فضلا عن حكايات أبي الحبيب الذي دعتْه ظروفُ عملِه كضابط بالجيش المصري، ثم كمدرس بالكلية الحربية بعد ذلك.. إلىٰ أن يكونَ مسئولا عن لجنة تدوين نَصّ المحاكمات العسكرية في ذلك العصر؛ حتىٰ أُصيبت عيناه بحُمْرة شديدة من شِدَّة التأثر!

.. وقد حمَدتُ الله أنني لم أكن في الدنيا وقت وقوع نكسة ٦٧.

إنها أجواء مبهجة.. المكان يَضِجُّ بالطاقة الإيجابية. والأغاني تُذاع الواحدة تلو الأخرى. الاستوديوهات تَعرِضُ بثًّا تجريبيًّا للأفلام التي سوف تُذاَع خلال اليوم: "الرصاصة لا تزال في جيبي"، "الوفاء العظيم".. وغيرها. يوم تاريخي، أَعيشُه من قلب الحدث، أُشارك اللحظة مع كل مَن يعملون علىٰ إسعاد الناس، وإحياء رُوح الوطنية في النفوس أولاً بأول.

الساعة الثالثة عصرًا. إنه يومٌ طويل علىٰ طفلة أن تَظلَّ من دون طعام، إلىٰ أن أحضرت لي أمي وجبة خفيفة من كافتيريا الدور العاشر.

وما إن تناولتُها حتىٰ بدأتُ أشعُر بالنُّعاس، وأخذتُ أسألها: متىٰ نعود إلىٰ البيت؟ فما كان من أمي إلا أنها ذكَّرتني بأنها لم تَكُن ترغب في اصطحابي معها؛ حتىٰ تستطيعَ أن تُتِمَّ عملَها في هدوء.

ففهمتُ من لهجتِها أن موعد المغادرة لم يَحن بعد، وأن عليَّ تدبيرُ حالي.. وإلا فلن يكونَ سهلا عليَّ إقناعَها باصطحابي بعد ذلك!

خرجتُ أتحسَّسُ طريقي خلال المساحة المسموحة لي؛

والتي لا تتعدَّىٰ حدود الدور الرابع الذي كان يَحوي غُرفًا عديدة لها شبابيك تُطِلُّ علىٰ النيل. وكانت أبواب الغُرف تُفتَح علىٰ طرقة طويلة؛ كنتُ أستمتع بالركض فيها ذهابًا وإيابًا.

وكانت تلك الطرقة تنتهي بشُبَّاك زجاجي بِعَرض الطرقة، يُشرف علىٰ مساكن متلاصقة، تفتقِر إلىٰ المدنية، تضمُّ أُناسًا؛ منهم مَن يرتدي الجلباب، ومنهم من يرتدي الزي المعتاد لي: بنطلونات وقمصانًا. وكانتْ ملابسُهم تَدُلُّ علىٰ رِقَّة حالهم!

وعلىٰ سطح أحد البيوت المواجهة لي؛ كانت هناك سيدة أربعينية ترتدي زيًّا أسود طويلا، وتجلس علىٰ كنبة خشبية مُلاصقة للسور، تنظر في صمتٍ إلىٰ ما لا نهاية.

ومن آنٍ لآخر؛ كان يدخل عليها شابان صغيران يحملان إليها زادًا قليلا وبسيطًا، ويضعونه أمامها، غير أنها كانت تأبَىٰ أن تتناولَه.. رغم محايلتِهما!

ما خطَبُ تلك السيدة يا تُرىٰ؟! ولماذا يبدو عليها الحزن؟ ولماذا ترفض الطعام؟!

حتىٰ جاء إليها طفلٌ لا يتجاوز عمرُه السنوات الأربع، بصحبة سيدة صغيرة عشرينية.. فجلسا بجوارها؛

فتحوَّل نظرُها إليهما، ثم بدأتْ تتناول من السيدة الشابة بعض الطعام.. وهي تتحدَّثُ إليها.

وفي الشارع الضيق أسفل البيت – حيث تَقطُن تلك الأسرة – دخلت سيارة چيب تابعة للجيش أعرفها جيدًا؛ فهي تُشبه السيارة التي تمر علىٰ بيتِنا يوميًّا؛ لاصطحاب أبي إلىٰ عمله.

.. ترجَّل من السيارة مجموعةٌ من المجندين.. وهم يحملون كراتين مُغلَّفة تحمِلُ شعار النِّسر المصري، ومعهم ضابطٌ شاب، ثم ظهروا علىٰ السطح حيث تجلس السيدة.

قام جميع الموجودين ليُفسحوا المكان للضيوف الكرام الذين جلسوا إلىٰ جانب السيدة، ثم إنهم نصبَوا صورة (بورتريه) بالألوان لشابٍ يلبِس إكليلا من الورود، وما إن فرغوا منها حتىٰ بدأت السيدة تبكي، فتقدَّم إليها الضابط وانحنىٰ يُقبِّلُ رأسَها ويديها، ثم جلس بجانبها يتحدَّث إليها حتى هدأت ثم انصرف مصطحبا معه الجنود.

مرت عدة دقائق ثم انقلبت الأمور رأسا على عقب وتحول الحى بأكمله الى ساحة عراك، ظلّلتُ أنظر

من موقعي أحاول أن أعرِفَ ما وراء المشهد، حتىٰ نادتني أمي؛ فقد انقضىٰ شيفت اليوم.
ولما عُدتُ إلىٰ البيت احتضَنتُ مَخدَّتي، وذهني لا يَكُفُّ عن التفكير في حال تلك السيدة ذات الجلباب الأسود.. حتىٰ رحتُ في سُباتٍ عميق!

الفصل الرابع

اليوم التالي.. يومٌ دراسي يبدأ منذ الساعة الثامنة صباحًا مع جرس الحصة الأولىٰ، وينتهي في تمام الساعة الواحدة والنصف ظهرًا؛ إلا أن هذا اليوم كان يومًا يُخصَّصُ كل عام للاحتفال بيوم النصر. وكنا نَقضيه بين حصص الموسيقىٰ نُغنِّي الأغاني الوطنية التي أعشقُها، وبين حصص الرسم؛ حيث يَطلُب منا المدرس تصوير مشهد من مشاهد أكتوبر علىٰ ورق (الكانسون) الذي كان يُوزَّع علينا.

وبعد فترة كانت إدارة المدرسة تختَار أفضل الرسومات لكل مرحلة عمرية؛ لتشارك بها في مسابقة المدارس التي كانت تُقام كل عام علىٰ شرف احتفالات أكتوبر المجيدة.

انتهيتُ من رسمتي المميزة هذه المرة.. والتي اختلَفتْ عن باقي الرسومات المقدمة؛ فقد رسمَتُ المشهَدَ الذي عشتُه البارحة. ساعدني نظري.. الذي كان لا يزال بخيره! فاختزنتْ ذاكرتي صورة الشاب التي نصبَها الجنود. لم تكن صورة دقيقة الملامح؛ بل كانت قريبة لما التقطتُه عيناي. وكذلك رسمَتُ السيدة ذات الرداء الأسود؛ وهي تنظر إلىٰ الصورة وتبكي.

انتهَتْ فاعلياتُ اليوم الدراسي سريعًا، وعدتُ إلىٰ المنزل أنتظر الموعد اليومي لمسلسل الساعة الثامنة مساءً؛ إلا أنه لم يُذَع.. فالرئيس السادات سوف يُلقي اليوم خطابًا.

وقد استعدَّ والداي استعدادًا خاصًّا لسماع الخطاب. وقد كانا مهتمين بخطابات الرئيس بشكلٍ كبير؛ وذلك لطبيعة عملِهما التي كانت تتطلَّب ذلك.

وكان يستوجب عليَّ أن أبحثَ لنفسي عما أنشغِلُ به؛ خاصة أن إذاعة خطاب الرئيس كانت تَعني إلغاء إذاعة المسلسل العربي في ذلك اليوم!

ولذلك فكنتُ عادة ما ألجأ إلى إسكتش الرسم؛ لأعبِّرَ عما بداخلي من خلال رسوماتي التي تميَّزتُ بها كثيرًا. وربما يكونُ مرجع ذلك هو مصداقية تلك الرسوم؛ حيث كانت تلك الإسكتشات مرآةً لحياتي، ولما أَشعر به.

وبينما أنا منهمكة في الرسم، شرَد ذهني قليلا في المشهد المؤلم الذي رأيتُه البارحة رأي العين من الدور الرابع بمبنى ماسبيرو، وبرغم أنني لم أجد تفسيرًا منطقيًا لما رأيتُ؛ فإنه آلمني بشدة منظر السيدة ذات

الرداء الأسود التي تجلس علىٰ أريكتِها تنظر الى الصورةِ التي نصبها الجنود، وبجانبها السيدة العشرينية وهما تبكيان، ثم يدخل عليهما أثناء حديثِهما رجلٌ في حالة غضب شديدة، يطرح الصورةِ ارضا ثم يُحاول أن يجذِبَ السيدة العشرينية بعنف حتىٰ إنها سقطت علىٰ الأرض، بينما الطفل كان يجري إلىٰ حضن السيدة ذات الرداء الأسود؛ ليحتميَ بها.. ثم فجأة يتحوَّل ذلك الوحشُ الكاسر إلىٰ الطفل؛ محاولا أن يَجرَّه، وكانتْ أُمُّه لا تزال ملقاة علىٰ الأرض في حالة إعياء!

فحاولت السيدة ذات الرداء الأسود النهوض؛ لإغاثة الطفل وأمِّه، لكنها لم تستطع وسقطتْ أرضًا هي الأخرىٰ!

حالة من الصراخ والعويل انتابت السيدتين! سُمِع صداها من خلال فتحة الشباك الذي أُطِلُّ منه، وبدا لي أنهما تَستغيثان بالجيران. وبالفعل حضرت بعض النِّسوةِ من دون رجال.. الذين يبدو أنهم لا يزالون في أعمالهم.

ولم تتمكَّن هؤلاء النسوة من إدراك الطفل من بين ذراعي الرجل؛ بل أضفَن صوت صراخ وعويل..

فارتفع صدىٰ الصوت وسط جدران البنايات المتقاربة؛ ليَزيدَ من هَول الموقف!

اختفى الرجل حاملا معه الطفل، حتىٰ ظهر وهو يخرج به مُسرعًا من المدخل أسفل البناية، ومن وراءه الأم تتعلَّق بجلبابِه وتتوسَّل إليه أن يتركَ الطفل. وقد تقطَّعتْ ملابسُها، وسقَط عنها غِطاءُ رأسِها، وسقطتْ هي في وسط الطريق!

وأخيرًا؛ التحم أصحابُ المحال البسيطة في الشارع، وتكاتفوا علىٰ الرجل؛ فرأيتُ أحدَهم يبدو أنه نجار يرفَع شاكوشًا في وجهِه؛ مُهدِّدًا إياه. وآخرَ يرفع مكواة، حتىٰ تدخَّل عم "إبراهيم الكبير" – كذلك سمعتُهم يُنادونه – الذي خرج مسرعًا من مَحل جزارة؛ وكان رجلا كبير السن نسبيًا، هادئ الطبع.. فلم يرفع صوتَه، ولم يُهدِّد بأية وسيلة؛ لكنه تكلَّم إليه بهدوء قائلا:

"سيب الولد، وروح مطرح ما جيت، وبينا وبينك المحاكم، وإلا ها أخلي الرجالة يقطعوك هنا.. ومالكش دية يا مسعد"!

تلك هي الجملة التي غيَّرت صورة المشهد رأسًا علىٰ عقب! فقد ترك مسعد الولد، ومضىٰ في طريقه. إنها

شهامة ورجولة أهل البلد العقلاء قد تجسَّدَت في هذا الرجل الخمسيني عم إبراهيم الكبير.

التفَّ الجيران حول السيدة الملقاة علىٰ الأرض، وهمَّوا بتغطية جسدِها العاري؛ بينما كانتْ تحتضِنُ ابنَها وتبكي مُردِّدة: "حسبي الله ونِعم الوكيل، ربنا ينتقم منك، الله يرحمك يا غالي".

"يا اللا يا عفاف" خُدي "إبراهيم الصغير"، واطلعي للست زينب "أم إبراهيم" فوق.. طمنيها عليكِ يا بنتي، ربنا يخلَّصك منه علىٰ خير".

هكذا ردَّد الأهالي الطيبون.

إنه مشهد أضاف الكثير إلىٰ خبرة الطفلة الصغيرة التي لم يَكُن عمرُها يتجاوز سنين معدودات؛ غير أن العمر لا يُقاس دومًا بالأرقام.. وإنما بالتجارب!

لم أفهم: لماذا هناك "إبراهيم الكبير" و"إبراهيم الصغير"؟ ولماذا يُسمُّون السيدة التي تُدعَىٰ "زينب" بـ"أم إبراهيم" أيضًا؟!

أسئلة كثيرة أنتظر أن تُجيبَني عنها الأيام المقبلة.

الفصل الخامس

٩ نوفمبر عام ١٩٧٧م: جلس والداي في انتظار خطاب الرئيس السادات الذي لم يكن خطابًا عاديا؛ إنما كان مختلِفًا اختلافًا جذريًا في تلك المرة.

فقد فجَّر السادات خلال ذلك الخطاب قنبلة مدوية هزَّت العالم أجمع!

سمعت صياح والداي، وكذلك الجيران الذين كنا نسمع أصواتهم تعلو فقط أثناء ماتشات "الأهلي" و"الزمالك"؛ فنعرفَ بذلك انتماءاتهم الكروية!

وكذلك أتتنا أصواتُ العاملين في المحلات أسفل العمارة التي كانت تتوسَّط شارع جامعة الدول العربية بالمهندسين؛ حيث تُطِلُّ شقتُنا علىٰ ملاعب نادي الزمالك.

كان الجميع يُصيحون في اندهاش وتَرقُّبٍ وخوف علىٰ قائد المسيرة.. الذي ربما يغضَبُ منه البعض؛ جراء تصريحاته النارية.

ترجَّلتُ إلىٰ جوار والداي لأستطلِعَ الأمر.. فسمعتُ السادات يُعيدُ مرةً أخرىٰ ما قالَه؛ كأنما ليؤكِّدَه للعالم أجمع: "إنني علىٰ استعداد للذهاب إلىٰ آخر نقطة في

العالم؛ سعيًا إلىٰ السلام العادل، ومن أجل ألا يُقتَل أو يُجرَح أيٌّ من أبنائي الضباط والجنود.. بل إنني علىٰ استعداد للذهاب إلىٰ الكنيست الإسرائيلي ذاتِه؛ لأننا لا نخشىٰ السلام، ولأننا أيضًا لا نخشىٰ المجابهة مع إسرائيل".

كانت الكاميرات تُركِّز علىٰ ياسر عرفات (رئيس منظمة التحرير الفلسطينية).. والذي أعرفه جيدًا علىٰ الرغم من صِغر سني؛ وذلك من خلال حديث والداي المشترك بينهما حول الأوضاع السياسية.. وهو ما وضَع بداخلي اللَّبنة الأولىٰ لمشروع شخصية صارتْ تَهتمُّ بالسياسة.

وفي تلك اللحظة؛ أشارت أمي إلىٰ أن عرفات تبدو علىٰ وجهِه علامات غضب شديد!

"المسألة مش سهلة، ها تحصل صراعات كتير في الداخل والخارج".. هكذا رَدَّ عليها أبي بنظرة الرجل العسكري المخضرم.

في اليوم التالي كنتُ أسمَعُ سائق أتوبيس المدرسة؛ وهو يتحدث إلىٰ المُشرفة عن خطاب الرئيس.. معتقدًا أنه ليس إلا كلامًا؛ فليس من المعقول أن يُعرِّضَ حياتَه للخطر.

أما المُشرفة؛ فكانت تُنوِّه إلى أنه إن صدق فسيكون بذلك قد باع القضية الفلسطينية إلىٰ الأبد.

وكذلك خلال فترة الفسحة؛ كان المدرسون يتحدثون في هذا الشأن. وقد انقسم الجميع ما بين: مؤيد ومعارض، ومُصدِّقٍ ومُكذِّب!

.. هكذا كان الحال في مصر، وكان كذلك أيضًا علىٰ مستوىٰ القوىٰ السياسية بالداخل والخارج.

راقبتُ الموقفَ عن كثَب؛ فمنذ وَعيتُ وأنا أُتابع فصولًا من الصراع الضَاري بين مصر وإسرائيل. وأُشاهد أفلامًا تحكي عن بشاعة ما اقترفَه العدو الصهيوني!

والآن لا أفهم شيئًا: فكيف سنُصبح حلفاء؟! وما بال الاحتفالات التي لم يَمض عليها إلا عدة أسابيع؟ وهل ستُلغىٰ إجازة السادس من أكتوبر؟!

وهل ستُمنَع الأفلام التي أُحبُّها وأنتظرُها من العام إلىٰ العام؟ وما بال الأغاني التي أتغنَّىٰ بها؛ فيهتزّ لها كِياني؟

.. كذلك كنتُ أفكر في تلك السيدة التي كان الجنود يزورونها.. هل ستفرح أم تحزن؟!

ماسبيرو.. ذلك الصرح الكبير الذي سرعان ما شارك القائمون عليه في الأحداث الراهنة؛ عن طريق تقديم البرامج التي تخدِم المرحلة، ليكون لها دورٌ في التخفيف عن الجمهور.. من خلال استضافة بعض الشخصيات ومناقشتها في جوانب عدة.

وكان ضمن مَن وقع الاختيار عليهم: والدي؛ الذي كان يشغل في ذلك الوقت منصب رئيس الشئون المعنوية بالكلية الحربية، فضلا عن تدريس مادتي: التنظيم والإدارة، وفن القيادة.

بدأ البرنامج بمُقدِّمة ألقاها الإعلامي الكبير/ محمود سلطان.. مُقدِّم برنامج "حوار الأسبوع"؛ عرَض خلالها السيرة الذاتية لوالدي، ثم بدأ بمجموعة من الأسئلة التي تَخُصُّ الطلبة المستجدين، وعُرِض فيلمٌ مسجَّل لمجموعة من الطلبة أثناء تَلقِّيهم بعض التدريبات.

وقد أشاد مُقدِّم البرنامج بعلاقة والدي المتميزة بالطلبة المصريين والعرب؛ لكونه كان محبوبًا بينهم.

سأل مُقدِّم البرنامج والدي عن الخبراء الروس الذين كان يتعامل معهم بحكم عملِه؛ فسرَد والدي – الذي كان يتمتَّع بخِفَّة الظِلِّ – موقفًا طريفًا حدَث بينه وبين

أحد هؤلاء الخبراء.. الذين وصفهم بضَيقي الأُفق، والتمسك بآرائهم الخاطئة، بما كان يُسبب إعاقة لسير العمل؛ فقال:

إنه ذات يومٍ؛ اختلَف مع واحدٍ من هؤلاء الخبراء في أمرٍ من الأمور، وتمسَّك الخبيرُ برأيه الخاطئ.. فما كان من والدي – الذي كان يتواصل معه باللغة الإنجليزية – إلا أن حدَّثَ نفسَه مُعترضًا علىٰ رأي ذلك الخبير بصوتٍ منخفض وباللغة العربية.. التي كان يعلَم أن الخبير لا يفهمها، وكانت ملامح وجهُه تدل علىٰ عدم الارتياح!

فما كان من ذلك الخبير إلا أن كتب ما قاله أبي بحروفٍ روسية؛ ليسأل فيما بعد عن معنىٰ كلام أبي. ثم في اليوم التالي؛ أتىٰ إلىٰ أبي يُحدِّثُه ضاحكًا؛ وهو يقول له: "عرَفتُ ماذا قلتَ عني البارحة"!

فضحكَ المذيع وقال: "أفهم من كلام حضرتك.. إنك كنتَ من مؤيدي قرار الاستغناء عنهم وترحيلهم؟"؛ فأجاب أبي: "بالتأكيد".

ثم سأله المذيع سؤالا وُديًّا عن ذكرياتِه خلال فترة الدراسة كطالب سابق في الكلية الحربية. فما كان من أبي إلا أن سرَد له العديد من القصص التي كنتُ

أستمتعُ بسماعِها منه، غير أنه أضاف إليها قصة كنتُ أسمعُها لأول مرة. ربما لم يَقصّها عليَّ سابقًا – حفاظًا علىٰ مشاعري – لصعوبة أحداثها التي عاشها بالفعل!

"إنه شهر ديسمبر عام ١٩٥٦م، سمعنا صافرات إنذار تُنذر بغَارة، فتلقَّينا تعليماتٍ بالنزول من المبنىٰ إلىٰ الخنادق في أرض الكلية.. والتي كانَت مُعَدَّة للاحتماء بها في حالة الهجوم.

حملنا أسلحتَنا وبدأت عملية إخلاء المبنىٰ؛ لكن أثناء سيرِنا تذكَّر زميلي "عبد الرحمن" أنه ترك سلاحَه علىٰ الأرض، بجوار خزانة الملابس الخاصة به.

وعلىٰ الفور أسرع لالتقاطه، لكن الأمور تطوَّرت بسرعة كبيرة؛ حيث كانت الأنوار مطفأة، والظلام حالك.. وإذا بصوت انفجار شديد قُرب المبنىٰ الذي تركناه من دقائق، لدرجة أن نوافذَه تهشَّمت من شدة الانفجار!

كانت كشافات طائرة هليكوبتر تهاجمُنا، وتُطلِق علينا أعيرة نارية من الرشاشات المُثبَّتة أسفل الطائرة.. فاحتمينا بالخنادق؛ إلا أن الهليكوبتر واصلت الهجوم علينا علىٰ ارتفاع منخفض، حتىٰ إني كنتُ أشاهد وجه الطيار بوضوح!

.. كان الموقف عصيبًا، وكنا نتجمَّع في اتجاه الطائرة حتىٰ نتفادىٰ القذف. وكان الطيار يقوم بالدوران إلىٰ الجهة المقابلة حتىٰ يتمكَّن من إصابتنا؛ فكنا نتوجَّه في اتجاهه كي نحتميَ بالساتر الترابي داخل الخندق.
وقد تكرر ذلك أكثر من مرة؛ حتىٰ تم التعامل معه.. فبدأ يتراجع ورحل علىٰ الفور. انتظرنا حتىٰ أُطلِقتْ صافرة الأمان، وعادت الإضاءة، وبدأنا نتجمَّع بشكلٍ منظم؛ حيث أثبتَ كلٌّ منا حضورَه، إلا "عبد الرحمن".. فلم يكن موجودًا بيننا!
.. فصدرَت الأوامر إلىٰ مجموعةٍ منا – كنتُ أنا من ضمنِها – بالبحث عنه داخل المبنىٰ؛ فصعدنا حيث العنبر الخاص بنا. وأخيرًا وجدناه مصابًا.. كان في وضع الجلوس علىٰ الأرض: مُسنِدًا ظهرُه إلىٰ الحائط ومحتضنًا سلاحَه.. رحم الله صديقي الشهيد عبد الرحمن".

هكذا سرد أبي تلك القصة التي عاصرَها؛ وقت أن كان طالبًا في الكلية الحربية. إنها فواجع ومخاطر يَمُرُّ بها حُماة الوطن. حفِظ الله مصر شعبًا وجيشًا.

الفصل السادس

اعتدَتُ أن أشاهِدَ أخي الكبير؛ وهو يلعب كرة القدم من شرفة شقتِنا التي تُطِلُّ علىٰ ملاعب نادي الزمالك. كان يلعب مع زملائه في كلية الهندسة يوم الجمعة، وكنت أُميّزُه من لون ملابسه لبُعد المسافة.

كانت تلك المباراة مختلِفة عن غيرها؛ فقد كانَتْ مبادرة من أخي لِلَمِّ الشمل، وجَبْر الصَّدْع، ووَضْع نهايةٍ للنزاعات المُحتدمة بين الزملاء الذين اختلفوا فيما بينهم، وانقسموا إلىٰ: مؤيد ومعارض لموقف الرئيس. وأحيانًا إلىٰ ثوار يُعبِّرون عن غضبِهم بالانضمام إلىٰ مظاهرات عنيفة اندلعت داخل الحرم الجامعي!

ولا يَخفَىٰ علىٰ الجميع أن هناك دومًا مَن يُضرِمِ النار في الهشيم لينالَ من استقرار هذا البلد!

.. هكذا كادت السياسة تُفرِّقُهم وتُحوِّلُهم إلىٰ أعداء؛ إلا أن الساحرة المستديرة كانتْ تجمعهم وتُزيل ما بينهم من فُرقة؛ ليصطفوا صفًّا واحدًا مرة أخرىٰ.. علىٰ قناعة: بأن اختلاف الرأي لا يجب أن يُفسِدَ للوُدِّ قضية.

وبينما أنا مستغرِقة في متابعتِهم؛ شاهدتُ طائرة هليكوبتر تطير علىٰ ارتفاعٍ منخفض.. فلوَّحتُ لها بيدي!

ربما تكون طائرة الرئيس الذي أُحبُّه، وأُتابع أخبارَه.. فهل يعرِف هو عني شيئًا؟!
.. لقد اعتادت أمي أن تُخبرَني بأنه هو مَن يُرسل لي الطعام مع سائقه الخاص كل يوم، حتى تضمَن أني سوف أتناوله كاملا!
.. إنها حيلة من حِيل الأمهات يستخدمنها مع أطفالهم!

مرت عدة أيام والكل سواء: مؤيد أو معارض؛ ينتظرون توابع الخطاب الرئاسي الناري الذي سوف يُغيِّر الأوضاع في الشرق الأوسط.. إلى أن سمِعتُ أمي تُخبر أبي بأن هناك دعوةً وُجِّهت للرئيس السادات من رئيس الوزراء الإسرائيلي "مناحيم بيجن" لزيارة إسرائيل.
وفي اليوم التالي (١٧نوڤمبر ١٩٧٧م) أعلنت وسائل الإعلام المحلية والدولية قبول السادات الدعوة. وأكَّد "بيجن" أنه سوف يستقبِلُ السادات استقبال رئيس دولة حليفة!

الأمرُ إذن أصبح قَيد التنفيذ، ولم يكن السادات يُصدِر تصريحات جُزافية، ولا يتبَع سياسة جَسِّ النبض! بل كان يَعني ويَعي جيدًا معنى كلامه.
١٩ نوڤمبر ١٩٧٧م.. إنه يوم عيد ميلاد والدتي، وقد اعتدنا أن نحتفلَ به احتفالا عائليًا في أجواءٍ شتوية؛

بشراء وجبة من محل "ويمبي" أو "كنتاكي" – وهما من أشهر المحال بشارع جامعة الدول العربية – حيث يتجاوران أمام منزلنا، ثم نختتِم الأمسية بأغنية عيد الميلاد علىٰ ضوء الشموع التي تُزيِّن التورتة التي يشتريها أبي من محل "قصر الأليزيه".

.. غير أن الأحداث السياسية الراهنة أضافت إلىٰ ذلك اليوم مذاقًا آخر يُضاف إلىٰ مذاق تورتة عيد الميلاد!

الجميعُ يجلسون أمام التلفاز. لا أعني أسرتي فقط؛ بل الشعب المصري بأكمله. وكذلك جميع الشعوب العربية، بل العالم كلُّه يتابع طائرة الرئاسة المصرية التي تُحلِّق فوق مطار "بن جوريون"!

في تل أبيب؛ ينزل رئيس جمهورية مصر العربية من طائرته بابتسامة عريضة، ويُصافح وجوهًا عرفناها من خلال الدراما التي جسَّدتْ لنا جرائمهم.. لكنه اليوم يُصافح أياديهم المُلوَّثة بدماء الشهداء؟!

والكل يتساءل: هل هذه المبادرة في صالح البلاد، أم أنها خطأ جسيم له تَبِعات غير محسوبة؟!

ما أشبَه اليومَ بالبارحة؛ فقد اختلف المسلمون فيما بينهم عندما عقد النبيُّ (صلَّىٰ الله عليه وسلم) صُلح الحديبية مع كفار مكة. وكذلك عندما فعل صلاح الدين الأيوبي الأمر نفسَه مع ملك انجلترا.. إنها مساعٍ

للسلام؛ بهدف تجنُّب ويلات الحرب التي أنهكَت جيشنا على مدار الأعوام الماضية.

مرت لحظات الاستقبال سريعة؛ وسط ترحيب غير مسبوق من جانب: "مناحم بيجن"، "جولدا مائير"، "أبا إيبان"، "موشي ديان".. ثم استقلَّ السادات والوفدَ المرافق له مجموعةً من السيارات؛ لتُقلَّهم إلى القدس الشريف.

لحظات حُفِرت.. ليس فقط في ذاكرة الأشخاص؛ وإنما في ذاكرة التاريخ الذي لا يُخطئ ولا يَنسى!
كانت ردود الأفعال متباينة بين جموع المصريين مع اختلاف طبقاتهم، التي لم تكن تتعدى الثلاث طبقات حين ذاك: الأغنياء، الطبقة المتوسطة، والفقراء.. لكنَّ الجميعَ كانوا يُعبِّرون عن وجهة نظرهم؛ كلا بطريقتِه وحسب ثقافته واهتماماته وانتماءاته الدينية.
.. فمنهم مَن كان يُحرِّم تلك الزيارة، ومنهم مَن كان يُباركُها. والحق أن الأمرَ لم يكن يتعلَّق بالحرام والحلال؛ بل كان يتعلَّق بالأهواء والمصالح الشخصية!

في اليوم التالي الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٧٧م؛ عاد الجميع إلى منازلهم مرة أخرى يلتفون حول التلفاز، ليستمعوا إلى خطاب الرئيس في الكنيست.

لم يكن أحدٌ يعلَم ما الذي سوف يستعرِضُه الرئيس خلال خطابه، وحتى الأشخاص المخولون بكتابة خطاباته.. كانوا يعلمون أن السادات يتكلَّم من رأسِه، وأنه ربما يُغيِّر الخطاب في اللحظات الأخيرة، أو ربما يرتجل أثناء إلقائه؛ تبعًا للظروف والمستجدات!

.. هكذا كتَب الدكتور/ بطرس غالي في كتابه "ستون عامًا من الصراع في الشرق الأوسط".. فالكل كان يترقب.

ولم أكن أفهم ما الذي يجعل أبواي قلقين إلىٰ هذا الحد. إنه من وجهة نظري خطابٌ كباقي الخطابات! إلا أن الفضول غلبني في تلك المرة؛ فقررتُ الجلوس معهم للاستماع.. ربما تتضح لي الرؤية وأستطيعُ أن أكوِّنَ رأيي الخاص، وأناقش المسألة مع الكبار.

في ذلك اليوم؛ جرت الأمور علىٰ غير العادة.. فلم أمَلّ من الخطاب كما كان يحدث لي سابقًا! فالأحداث كانت ساخنة؛ حتى إنها جعلتني أُنصتُ باهتمامٍ من فرط ما بدا واضحًا علىٰ والداي من: قلق وترقب، حتىٰ انتقل إليَّ ذلك الشعور!

وأتذكر أن كثيرًا من الجمل استوقفتني؛ ومنها ما لمس

قلبي، ومنها ما أضحكني.. ذلك علىٰ قدر سِنِّي في ذلك الوقت!

"لقد كنا نرفضُكم، وكانتْ لنا أسبابنا ودعوانا.. نعم.
لقد كنا نرفض الاجتماع بكم، في أي مكان.. نعم.
لقد كنا نَصفَكم بإسرائيل المزعومة.. نعم".

عند تلك الكلمات وجدتهم ينظرون إلىٰ بعضِهم البعض، يتلامزون فيما بينهم!
.. هذا المشهدُ أضحكني ولا يزال إلىٰ الآن.. إن السادات كان يُسقِط عليهم في عقر دارهم!

"إن الروح التي تُزهَق في الحرب.. هي رُوحُ إنسان؛ سواء كان عربيًّا أو إسرائيليًا.
إن الزوجة التي تترمَّلُ.. هي إنسانةٌ مِن حقِّها أن تعيشَ في أُسرةٍ سعيدة؛ سواء كانت عربية أو إسرائيلية".

"إن الأطفالَ الأبرياء؛ الذين يفقدون رعاية الآباء وعطفهم.. هم أطفالُنا جميعًا علىٰ أرض العرب، أو في إسرائيل: لهم علينا المسئولية الكبرىٰ في أن نُوفِّر لهم الحاضر الهانئ، والغدَ الجميل".

"من أجل أن نحمِيَ حياة أبنائنا وإخوتنا جميعًا، ومن أجل أن تُنتِجَ مجتمعاتُنا وهي آمنةٌ مطمئنة، من أجل

بَسمة كل طفل يُولَد على أرضنا.. من أجل كل هذا: اتخذتُ قراري بأن أَحضر إليكم – رُغم كل المحاذير – لكي أقولَ كلمتي".

تلك الكلمات لمسَتْ قلبي كطفلة. وبرغم وجود بعض المصطلحات التي لم أفهمها وقتَها؛ فإنني استشعرتُ بها عندما تذكَّرت أبناء الشهداء وهم يتقدَّمون لتسلُّم الهدايا التقديرية في ذكرى أكتوبر في طابور الصباح.. وهم يتجرَّعون آلام اليُتْم! وكنتُ أرى في أعينهم نظرة الانكسار؛ لافتقادهم السَّند. كنتُ أشعر بهم، وأتألَّم من أجلِهم؛ عندما كنتُ أتخيَّل أنني قد أَعودُ من المدرسة.. فلا أجد أبي – الذي أوجعني ولا يزال يُوجعني فقدانَه وأنا الآن سيدة ناضجة – فما بال وجع الأم التي تفقِدُ الابنَ: الأمل، قِطعةَ القلب التي تمشي على الأرض.. والزوجة التي تنتظِرُ عودة الزوج الذي لن يعودَ أبدًا.. والأخ الذي ناشَد فيه الكليم ربَّه حتى استجاب إليه المولى؛ فقال سبحانه: {سنَشُدُّ عَضُدَك بأخيك}.

"ويا أيتها الأم الثَّكلَى، ويا أيتها الزوجة المُترمِّلة، ويا أيُّها الابنُ الذي فقَد الأخَ والأب، ويا كُلّ ضحايا الحروب:
املأوا الأرضَ والفضاء بتراتيل السلام، املأوا الصدورَ

والقلوب بآمال السلام، اجعلوا الأملَ أنشودةً حقيقية تعيشُ وتُثمر، اجعلوا الأملَ دستور عملٍ ونضال، وإرادة الشعوب هي من إرادة الله".

أما الآن، عندما أدركتُ مدىٰ قوة ذلك القرار التاريخي الخطير الذي غاب عني يوم أن كنتُ طفلة صغيرة، واتضحت لي اليوم خبايا سياسية كثيرة.. فضلا عن ضغوطات داخلية وخارجية لا يقوىٰ علىٰ مجابهتِها إلا رجلٌ بقلب أسد، يستمد قوتَه من إيمانه بالله، ثم إخلاصِه وحُبِّه لوطنه.. فقد فهِمتُ معنىٰ العديد من الكلمات التي استعصىٰ عليَّ فهمُها في الماضي، حتىٰ أصبحَتْ كلُّ كلمةٍ من كلمات ذلك الخطاب التاريخي تَمَسُّ قلبي!

"اللهم إني أردّدُ مع زكريا قولَه: "أحبّوا الحقَّ والسلام".

"وأستلهِمُ آيات الله – العزيز – في قوله: {قل آمنا بالله وما أُنزل علىٰ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتيَ موسىٰ وعيسىٰ والنبيون من ربِّهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون}.
صدق الله العظيم.

هكذا اختتم القائدُ خطابَه، فصفَّق له الإسرائيليون تصفيقًا حارًا، حين لمسَ الخطابُ قلوبَهم كبَشَرٍ، ولم يستطيعوا كقادَةٍ أن يَجدوا فيه ثُغرة، كي يتملَّصوا منها

لردِّ المطالب المشروعة للرئيس المنتصر، الذي يَمُدُّ يدَه يطلُب حقَّه وحق الشعب الفلسطيني، رافعًا رأسَه أمام العالم بقوةٍ وثبات.

هُدم الحائط الذي كان مُقامًا أمام بوابة منزلنا، وكذلك كل المنازل منذ حرب ٦٧ – قبل أن أُولَد بسنواتٍ عديدة – وكان قد استمر بقاؤه؛ تحسُّبًا لوقوع حربٍ جديدة، فسيناء كانت لا تزال مُحتلَّة، أما الآن فإنها عائدة لا محالة؛ طبقًا لمعاهدة السلام المُوقَّعة بين مصر وإسرائيل، تحت الضمانة الأمريكية.

بدأ المصريون يشعرون بنوعٍ من الاستقرار، وبدأ المعارضون منهم يتقبَّلون الأمر. ورغم مقاطعة العديد من الدول العربية لمصر؛ فإنهم ما لبثوا أن أعادوا علاقاتهم بمصر لاحقًا – بعد وفاة رجل السلام – عندما عرفوا أن ذلك الرجل كان سابقًا لعصره، وأنه لم يَبِع القضية الفلسطينية التي يُتاجر بها الكثيرون؛ بل إنهم خسروا ما أوشكوا أن يكسبوه.. لولا العصبية والعناد الذي اتبعوه؛ متوهمين تحقيق مجدٍ زائف لم يتحقَّق!

رحم الله رجلا أنجبته مصر؛ فأحبَّها وقادَها في أحلك الظروف، واستُشهِد في ذكرىٰ يوم النصر الذي حقَّقه.. علىٰ يدِ خوارج نهاية الزمان: مَن يتبرَّأُ منهم الإسلام،

مَن لا ينتمون أو يعرفون معنىٰ الوطن!
وكان الغرض تصدير صورة زائفة للعالم؛ بأن السيفَ والدرع الذي تحتمِي به البلاد.. هو مَن خان!
وإنما الواقع أن يَد الغدر استَخدمَت السهم العربي الذي وُجِّه إلىٰ ريتشارد قلب الأسد من قبل – عند زيارته للقدس – لإفساد الإنجازات، وسعيًا وراء زعزعة استقرار البلاد.
إنه التاريخ يتكرر، وسيظل يتكرر.. فلن تخلوَ الدنيا من المفسدين إلىٰ يوم القيامة!

وإني أتذكرُ شعوري في ذلك اليوم؛ عندما شاهدتُ أمي تبكِي ولمحَتُ الدموعَ في عينيْ أبي، وخُيِّل إليَّ أن إسرائيل ستحتل أرضَنا مرة أخرىٰ! وكأني كنتُ أشعر بأن ذلك القائد كان بمثابة السَّند والأمان لمصر، كما كان شعوري بأن لا أحد يستطيع إيذائي وأنا في كَنف أبي (يرحمه الله).
إنها مشاعر الأطفال التي لا تُخطئ أبدًا؛ فهم لا يزالون علىٰ الفطرة السليمة.

الفصل السابع

أتعجَبُ عندما أجد أولادي يتململون مما أبديه من ضيقٍ وزَجْرٍ لهم؛ وهم يقضون أوقاتهم بين: فيس بوك، وأنستجرام.. وغيرها من تطبيقات لا يَلُمُّ بها الكثيرون من جيلي؛ فأتذكر أيام طفولتي، وأَودُّ - أحيانًا - لو أستطيع سَحب تلك الإحداثيات من بين أياديهم.. ولو لخمس دقائق، حتىٰ يستشعروا قيمتها!

إنه الجانبُ المُشرق لزمنهم. أما الجانبُ المُشرق لزمنِنا؛ فكان غيابُ تلك التطبيقات عن عالمنا، حتىٰ نشأنا جيلا قويًّا في اللغة العربية، مُلِمًّا بالجوانب السياسية، يقرأ الكتب والروايات، ويُشارك عائلته أحلىٰ وأحلك المواقف والأحداث.

لقد كنتُ طفلةً محظوظة. فقد كانت قدماي تطأ مبنىٰ ماسبيرو بصحبة والدتي، وكذلك حرم الكلية الحربية التي كان والدي مُدرسًا بها.

وتتلمَذ علىٰ يديه العديدُ من القادة المصريين والعرب، الذين أحبُّوه لطبعِه الليِّن، وأسلوبِه المُميِّز في التدريس. وكان لأبي في الكلية مكتبٌ كبير مُلحَقٌ به غُرفة استراحة يَقضي فيها ليلته؛ عندما يكون (نبطشي).

وأثناء الرحلات؛ كان يَصطحبني معه إلىٰ أهرامات الجيزة. كما سافرتُ معه إلىٰ بور سعيد. وفي صحبته شاهدتُ آثار الدمار في مدن القنال، وقد تأثرتُ بمشهد الأبنية المتهدمة؛ التي احتضنت رُفات سكانها وذكرياتهم.

.. وكنتُ أُحِبُّ رحلة بور سعيد تحديدًا؛ لأن والدي كان يشتري لي (كمبوت) الأناناس والكريز المستورد. وكذلك كنتُ أشرب "سڤن آب" و"بيبسي كولا" في علب صاج تُفتَح من أعلىٰ!

وكل تلك الأشياء؛ لم تكن موجودة في القاهرة.. إلا في بعض المحال القليلة. فبور سعيد حينذاك كانت منطقة حرة؛ يعمل سكانُها في التجارة. إنها كانت بمثابة منحة من الرئيس السادات لأهلها؛ ليُعوِّضَهم عن معاناتهم أثناء الحروب لعقود طويلة.

وفي بور سعيد في ذلك العهد؛ كان هناك ما يُسمَّىٰ بالسوق "الأفرنجي". وكان هذا السوق يَضُمُّ – وإلىٰ يومنا هذا – أشهر الماركات العالمية للملابس الجاهزة.

وبينما كنتُ أُمسك بيدِ أبي، ونمشي معًا في السوق "الأفرنجي"؛ لفتَ نظري فستانٌ كان نصفُه العُلوي أبيض، ونصفُه السُّفلي منقوشٌ بورد أخضر.

أعجبني الفستانُ كثيرًا فدخلتُ مع أبي إلىٰ داخل المحل؛ فإذا بصاحب المحل – الذي كان يُدخِن الشيشة – ينتفض من مكانه ليُرحِّبَ بالضابط وابنتِه ويُقدِّم لهما العون، ثم اقترب مني الرجل وبدأتُ أراه عن قرب.

إنه "مسعد".. الوحش الكاسر صاحب الواقعة التي شاهدتُها من إحدىٰ شُرفات مبنىٰ ماسبيرو؛ لكنَّه في تلك المرة.. كان حمَلا وديعًا يتحدَّث بأدبٍ واحترام إلىٰ حضرة الضابط!

كان أبي وسيمًا، ممشوق القوام، له هَيبةٌ بالزي العسكري. ووددتُ لو أن أُخبرَه بما بَدر من ذلك الشخص؛ من تجاوز في حق: "عفاف" و"زينب" و"إبراهيم الصغير"؛ فيَقبض عليه ويَضعَه في السجن العسكري.. إلا أنني كنتُ أرغب في اقتناء الفستان الذي اشتراه لي أبي بالفعل. كان فستانًا جميلا، وارد الخارج. حيث كانت كل البضائع في بور سعيد في ذلك الوقت مستوردة. وكنتُ دائمًا ما أنتظر تلك الرحلة ليشتريَ لي والدي ما يحلو لي.

ثم جاء موعد الغداء المُحدَّد؛ فذهبنا مع المجموعة لنأكلَ السمك والجمبري، ثم قدَّم لنا صاحب المطعم الحلويات الشرقية والشاي هديةً من المحل؛ تقديرًا

وعرفانًا لقادة الجيش الذي سكَنتْ محبتُه قلوبَ المصريين أجمع.

انتهى اليوم بسرعة. وهكذا تنقضي الأيام السعيدة! وعُدتُ إلىٰ القاهرة وقد عرَفتُ أن مسعد تاجر ملابس في السوق "الأفرنجي" ببور سعيد. وعندما دخلتُ إلىٰ غرفتي؛ التقطتُ ألواني ورسمتُ أبي بزيِّه العسكري.. وهو يُكبِّل "مسعد" بالسلاسل الحديدية، وأنا واقفة بجانبه أشاهد الموقف في سعادة!

بِتُ ليلتي أحتضِنُ فستاني من فرط سعادتي به، وفي اليوم التالي ذهبتُ إلىٰ مدرستي. وأثناء طابور الصباح؛ كان هناك مجموعة من الضيوف من وزارة التربية والتعليم يقفون إلىٰ جانب المديرة. ثم قام مدرس الرسم بالتقاط الميكروفون وبدأ يُنادي علىٰ أسماء الفائزين في مسابقة الرسم، وكنتُ منشغلةً بصديقتي التي كانت لا تَكُفُّ عن مضايقتي والعبث برابطة شعري التي اشتريتُها بالأمس من بور سعيد؛ حتىٰ أفقتُ علىٰ صوت زملائي.. وهم يُنبهونني بأن المدرس ذكر اسمي وردَّده عدة مرات؛ كي أصعدَ لأصافحَ أعضاء اللجنة ومديرة المدرسة؛ فقد فُزتُ في مسابقة الرسم للمرحلة العمرية علىٰ مستوىٰ الجمهورية.

كانتْ لحظةً جميلة..

لم أكن أتخيل الفوز، وإنما كنت أُعبِّر عن مشهدٍ حقيقي شاهدتُه.. وربما كان هذا هو سبب الفوز!

فالرَّسمة عبَّرتْ عن مشاعر حقيقية، وكان من الأجدر أن يُشاركني أبطالُها الحقيقيون الذين ألهموني إياها؛ لكنهم لم يكونوا يعرفون أني أرسمهم، أو أني حتىٰ شاهدتُهم عن بُعد، وعشتُ معهم الحدث!

كان يومًا سعيدًا؛ فقد صافحتُ المسئولين الآتين من الوزارة، وكذلك مديرة المدرسة - وكنا نخشاها من فرط هيبتِها - التي ابتسمَتْ في وجهي وقبَّلتني!

والتف الجميع حولي، حتىٰ صديقتي اللزجة التي كانت تُضايقني أثناء الطابور.. أخذت تتودَّدُ إليَّ في محاولة للصلح، فاتفقتُ معها علىٰ هدنة أو معاهدة سلام، كتلك التي انعقدتْ بين مصر وإسرائيل!

الفصل الثامن

وكم ودِدتُ أن ينتهيَ اليوم الدراسي بسرعة؛ لكي أعودَ إلىٰ والداي، وأُبشرهما بما حقَّقتُه وأطلب منهما المكافأة. ولم يكن طلبي في تلك المرة شيئًا ماديًّا؛ بل طلبتُ من والدتي أن أذهبَ معها باكرًا أثناء عطلة المدرسة إلىٰ ماسبيرو. فلقد رغِبتُ في أن أستطلعَ حال الست زينب، وعفاف التي رحل عنها مسعد لتستريح منه.. والذي شاهدتُه البارحة في بور سعيد.

تعجَبتْ أمي من الطلب، لكنها وافقت. استيقظتُ في اليوم التالي مبكرًا من دون أدنىٰ مجهود من والدتي.. التي كانت دومًا تعاني كي أستيقظَ مبكرًا أثناء أيام الدراسة!

ثم ارتديتُ فستاني الجديد الذي اشتريتُه من محل مسعد، وحملت "اسكتش" الرسم والألوان، وانتظرتُ موعد الذهاب.

لم أعد أهتم بالاستوديوهات.. كما كنتُ أفعل من قبل؛ بل إنني أسرعتُ إلىٰ آخر الطرقة الطويلة، لكي أقفَ خلف زجاج الشباك أبحث عن زينب.

ظللتُ قرابة نصف الساعة أنتظر ظهورَها، أو أحد أبنائها. كان الجو ربيعيًا؛ ليس حارًا أو باردًا. ودعوتُ الله أن أجد خلال ذلك اليوم مشهدًا يستحق التجسيد بالرسم. وبدأتُ أنادي في صمتٍ علىٰ زينب وعفاف وإبراهيم الصغير: أين أنتم؟ هل أنتم نائمون؟ هل هجرتم المنزل بأكمله؟ لماذا ليس لكم أثر اليوم؟!

وكأنما كانت أبواب السماء مفتوحة؛ فاستجابتْ دعاء الطفلة الصغيرة!

فقد ظهرت زينب تَمشي ببطء، متجهةً إلىٰ الأريكة الخشبية الملتصقة بسور السطح، وهي تنظر من جديد إلىٰ ما لا نهاية.

ثم وقفت سيارة چيب أمام المنزل، وترجَّل منها شابٌ، ومن خلفه مجموعة من الجنود، دخلوا جميعًا مسرعين إلىٰ البناية، ثم ما هي إلا ثوانٍ معدودات، حتىٰ ظهر الشاب علىٰ السطح وارتمىٰ في أحضان زينب؛ التي دبَّتْ فيها الروح، وأخذ يُقبِّلُ قدميها؛ فقامت السيدة من مقامها صحيحةً معافاة تصرخ!

لكن كانت في تلك المَرَّة تصرخُ من شدة الفرح؛ عندما ارتمىٰ الشاب في أحضانها؛ وهي تقول: "ابني عايش، ابني عايش، كنت حاسة، اللهم لك الحمد، فينك يا

شعبان تشوف إبراهيم ابنك البطل، الحمد لله، الحمد لله".

بكىٰ الجنود، وبكيتُ أنا؛ فلم أرَ في حياتي مشهدًا بمثل هذه القوة، ولا أظن أنني – طيلة حياتي – سأرىٰ مشهدًا أقوىٰ منه!

خرجَتْ عفاف من الغرفة المجاورة؛ وهي تهرول من دون غطاء رأس، وإبراهيم الصغير مُمسِكٌ بطرفِ جلبابها، ثم تسمَّرتْ في مكانها.. وكذلك إبراهيم الشاب!

نظرا إلىٰ بعضِهما البعض بلا حراك، وبلا كلام.. والدموع تنهمر من عينيها، ثم تحرَّك إبراهيم الشاب تُجاهها، وأمسك بيدها مُقبِّلا لها؛ فارتمَتْ في أحضانه غير مبالية بكلِّ مَن حولها، وقد علا صوتُ نحيبِها!

وكان إبراهيم الصغير يتمايل معها؛ وهو لا يزال مُمسِكًا بجلبابها، حتىٰ سقط علىٰ الأرض يبكي. فالتفتَ إليه إبراهيم الشاب؛ فأشارت إليه عفاف وهي تقول: إنه إبراهيم.. فنزل الشاب علىٰ ركبتيه رافعًا الطفل إلىٰ أعلىٰ، ثم ضمَّه إلىٰ صدرِه، وقد هدأ الطفل في حضن الشاب وكَفَّ عن البكاء!

حقًّا إن الروح تهدأ عندما تشعر بالأمان.

نظر الشاب إلىٰ يمينه؛ فشاهدَ صورتَه وهو مُطوَّق بالورود، ثم التفت يسارًا إلىٰ الضابط الذي كان دائم السؤال علىٰ زينب – والذي كان قد جاء إليها من قبل بصحبة الجنود الذين حملوا صورته يوم السادس من أكتوبر الماضي – واحتضه؛ كأنما يريد أن يُعبِّرَ له عن امتنانه وشكره من كل قلبه.. في مشهدٍ مليء بالمشاعر.

بدأ الأهلُ والجيران يتوافدون علىٰ سطح زينب، حتىٰ إن المحال فرغت من أصحابها وامتلأ المكان!

ثم انضم شقيقاه (عليٌّ وحُسين) إلىٰ المشهد، وكذلك إبراهيم الكبير الذي كان قد صعد إلىٰ أعلىٰ يبحث عن البطل إبراهيم، ثم احتضنَه باكيًا؛ ومُرَدِّدًا: "ابني إللي ما خلفتوش رجع.. اتولدت علىٰ إيدي، وسمُّوك علىٰ اسمي.. يا حبيبي، ابني رجع، أحمدك يارب"، وعلَت الزغاريد علىٰ السطح والأسطح المجاورة!

نظرتُ بجانبي؛ فوجَدتُ أمي تقِفُ خلفي تنظر إلىٰ ما أنا ناظرة إليه، وكذلك زملاؤها.. فقد وصل صوت الزغاريد إليهم. لاحظت أمي الدموع في عينيْ؛ فاحتضنتني.. وهي تقول لي: "همَّ مبسوطين يا حبيبتي، الظاهر عندهم حد بيتجوز ما تعيطيش"!

الفصل التاسع

لم يختلف حالي بعد العودة إلىٰ المنزل؛ بل ظللتُ متأثرةً بالأحداث التي شاهدتُها من شُباك ماسبيرو.

لم أكن حزينة أو سعيدة! بل انتابني شعورٌ يصعُب وصفُه؛ أقرب ما يُقال عنه: إنه شعور بالرغبة في مساعدتهم والاطمئنان عليهم. فعلىٰ الرغم من أني لم أكن أفهم كل خبايا المشهد؛ فإنه بات واضحًا لي أنهم في حاجة إلىٰ الدعم. ثم انتابني شعورٌ خفيٌّ بالخوف؛ لأني ربما أكون قد انزلقتُ في دوامةٍ.. قد تُصيبني بسوء.

لاحظَتْ أمي ما طرأ عليَّ من تغيير؛ فجلستْ تتحدَّثُ إليَّ، فقصصتُ عليها القصة من بدايتها. كنتُ أبكي ولا أدري ما سببُ بكائي.. كنتُ أخشىٰ من عقاب أمي.. لكن علىٰ أي شيءٍ سوف تعاقبني؟!

فإنني لم أفعل ما أستحق عليه العقاب. وقد كنتُ أظن أنني لا أستحق الجائزة التي حصلَتُ عليها؛ لأنني ربما أكون بذلك سرقت فكرة الرسم من واقع يعيشُه هؤلاء، أو ربما أكون مذنبة؛ لأني تلصَّصتُ عليهم!

كانت هناك العديد من الأفكار المتناقضة، وغير المنطقية.. التي تدور في رأسي!

حاولتْ أمي أن تُطمئنَني، وأكَّدت لي استحقاقي الجائزة، وأثنَتْ عليَّ لأنني استطعتُ أن أُجسِّدَ الواقع علىٰ الورق. وأضافت بأن أشهر الرسامين يرسمون من الواقع الذي أمامهم؛ سواء كان هذا الواقع شخصًا أو منظرًا طبيعيًّا.

وبرغم الهدوء النسبي الذي بدا عليَّ؛ فإنها شعرتْ أن ذلك لا يكفي. فأحيانًا ما يكون الاحتواء والتعامل مع الطفل الذكي شيئًا في منتهىٰ الصعوبة؛ حيث يراه الناس طفلا، ويتعاملون معه بمنطق أنه لا يُدرك العديد من الأمور.. التي قد يكونُ هو أكثر إدراكًا لها مما نتصور.

فكَّر أبواي في فكرة عبقرية أدهشتني وأثلجت صدري؛ فقد تواصلت أمي مع زملائها من مُقدمي البرامج في التلفزيون، حتىٰ رتَّبتْ معهم استضافتي بأحد البرامج؛ لكوني حصلتُ علىٰ جائزة الرسم الأولىٰ علىٰ مستوىٰ أصغر فئة عمرية بالجمهورية.

ليس هذا فحسب؛ بل استطاع والدي أن يَتوصَّلَ إلىٰ معلومات عن إبراهيم شعبان؛ المجند البطل وأسرته، حتىٰ يطمئنَّ علىٰ سلامتِه ونزاهته.. قبل أن يدعوه معدو البرامج للتكريم.

وما إن تبيَّنوا حُسن سيرته؛ حتىٰ تمَّت دعوتُه هو ووالدتُه. وقد حضر في الموعد المحدَّد للتسجيل وشاهدتُه عن قرب. إنه شابٌ متوسط الطول، ذو بشرةٍ خمرية مثل والدته زينب التي كانت بصحبته، وتدل ملامحُ وجهِه علىٰ طيبة قلبه.

تلمَحُ في عينيه عِزَّة نَفْس تُخفِي وراءها وجعًا دفينًا، يتعامَلُ برُقِي رُغم بساطة معيشتِه! صافحني بابتسامة جميلة، ثم عبَّر لي عن امتنانِه الشديد لكوني كنتُ سببًا في تكريمِه من خلال عدة برامج.

فقد اتصل به معدو برنامج لتكريم أبطال أكتوبر، وسوف يُعرَض قريبًا علىٰ شاشة التلفزيون وسيَحكي من خلاله قصته.

هكذا تبدَّل حالي بين عَشيةٍ وضُحاها، وأصبحتُ أشهر طالبة في المدرسة، وبات حُلم الاستوديوهات – التي كنتُ أتمنىٰ فقط أن أطأها بقدمي، أو أقف فيها لأشاهد وأسمع من دون حراك – حقيقةً أعيشها؛ حيث أصبحتُ ضيفةً يتم تكريمُها عبر شاشة التلفزيون!

بدأ البرنامج بحديث زينب؛ وهي سيدة مكافحة، تعمَل عاملة نظافة بأحد المستشفيات، تُوفِّي زوجُها منذ ثلاث سنوات؛ حُزنًا علىٰ ابنِه الأكبر إبراهيم؛ المفقود منذ أكتوبر ١٩٧٣م.

لم يترك شعبان بابًا إلا وطرَقه؛ بحثًا عن معلومة تُفيده بمصير ابنِه، حتىٰ يستطيعَ أن يحتسبَه من الشهداء، أو يُقيم له عزاءً في مسقط رأسه بجرجا في سوهاج، أو ينتظر عودته من الأسر.

.. إلا أن القدر لم يُمهله حتىٰ يتحقَّق من تلك المعلومة؛ فقد تُوفِّي شعبان في حادث أثناء تأدية عمله كسائق. ربما يكون شرَد بذهنه أثناء القيادة؛ وهو يُفكِّر في الابن المفقود، أَحَبّ أبنائه إليه.. هذا ما ذكرتُه زينب التي استطردت قائلة:

"جئنا من بلدنا؛ سعيًا وراء لُقمة العيش، رزَقنا الله بثلاثة أولاد: إبراهيم وعلي وحسين.. هم كل ما خرجنا به من الدنيا.

.. حصل إبراهيم علىٰ الثانوية العامة، ثم التحق بالمعهد الفني الصناعي، وظل يعمل خلال فترة الدراسة حتىٰ يُساعِد والدَه للوفاء بمصاريف إخوته؛ فأنا لم أكن أعمل في ذلك الوقت.. إلا أنني اضُطرِرتُ للعمل بعد وفاة زوجي. وكان المبلغ الذي يُصرَف لنا من الجيش، إلى جانب مرتبي.. يكفينا بالكاد".

استكمل إبراهيم الحديث:

"تخرجتُ في المعهد الفني الصناعي في يونية عام

١٩٧٢م بتقدير عام "جيد جدًّا"، وتزوجتُ عفاف، ثم التحقتُ بالجيش لتأدية الخدمة العسكرية.

وفي يوم ١٢ أكتوبر ١٩٧٣م وقَعتُ في الأَسْر، الذي بقيتُ فيه لمدة أربع سنوات، حتىٰ يئستُ من العودة إلىٰ الوطن، وتمنيتُ لو أنني كنتُ شهيدًا. ودعوت ربي كثيرًا أن أعودَ إلىٰ مصر؛ وقد استجاب الله دعائي. .. لم يكن الأسر يُزعجني؛ بل كنتُ حزينًا لأنني سوف أُدفن بعيدًا عن بلدي!

سألَه مُقدِّمُ البرنامج عن معاملة الأسرى؛ فأجاب: "في البداية كانت سيئة إلىٰ أقصىٰ الحدود، وقد حاول الإسرائيليون الحصول منا علىٰ معلومات عن الجيش.. لكن من دون جدوىٰ. وكانت الأحوال تتغيَّر بتغيير القيادة المسئولة عنا.. إلىٰ أن قام الرئيس بزيارة إسرائيل؛ فبدأنا نُعامَل معاملة أفضل، ثم جرىٰ استدعاؤنا وعلِمنا أن القيادة المصرية طلبَت تسليم جميع الأسرىٰ المصريين".

.. وهكذا انتهىٰ البرنامج؛ الذي عرَفتُ من خلاله بعض التفاصيل عن تلك الأسرة.. لكن اهتمامي بهم لم ينته بعد؛ فلا تزال هناك العديد من الأمور المبهمة التي تحتاج إلىٰ تفسير!

الفصل العاشر

بدأت إجازة نصف العام، وقد كنتُ أذهب مع أمي إلىٰ ماسبيرو، أُجسِّدُ ما تقع عليه عيناي، وما تلتقطه أذناي من آراء حول الأحداث العالمية.

إنه يوم ٤ يناير ١٩٧٨م؛ وقد تلقَّتْ أمي عبر "التيكرز" خبر اغتيال "سعيد حمامي" ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في لندن؛ حيث أطلَق عليه شخصٌ مجهول من أصل عربي الرصاصَ.. وكان في مكتب الجامعة العربية بلندن!

وجدير بالذكر أن سعيد حمامي، معروف بمواقفه المعتدلة داخل منظمة التحرير الفلسطينية. وقد اتهمته بعض المنظمات الفلسطينية بالخيانة؛ بسبب ما كان ينشره من آراء معتدلة في الصحف البريطانية.. والتي دعا من خلالها إلىٰ حَلِّ المشكلة الفلسطينية بوسائل غير الصراع المسلح.

كما كان له دورٌ في محاولات إجراء اتصالات بين عناصر فلسطينية وعناصر إسرائيلية؛ لتبادل الرأي حول الحلول الممكنة للقضية الفلسطينية.

"إنها تداعيات تُشير إلىٰ إباحة استخدام العنف ضد أية جهة تؤيد التعامل مع إسرائيل؛ فضلا عن الاتهامات المتبادلة بين الأفراد والدول بالخيانة والتفريط في القضية الفلسطينية".

هكذا حلَّل والداي الموقف. وأعربا عن قلقِهما من وقوع المزيد من العنف!

وكأن أبواي كانا يقرآن المشهد بتأنٍ؛ فلم يمض علىٰ تلك الواقعة إلا أسبوعان، حتىٰ أُعلن في صباح يوم السبت ١٨ فبراير ١٩٧٨م عن اغتيال "يوسف السباعي" – الأديب، والعسكري، ووزير مصر السابق –في العاصمة القبرصية نيقوسيا، أثناء حضورهِ مؤتمر التضامن الأفرو آسيوي السادس؛ حيث إنه كان أمين عام منظمة التضامن الإفريقي – الآسيوي.. في ذلك الوقت.

وكان السباعي برِفْقة الرئيس السادات في زيارته لإسرائيل؛ بصفته رئيسًا لتحرير جريدة الأهرام.. وقد اتُهم من وقتها بأن له مواقف معادية للقضية الفلسطينية؛ إلىٰ أن نالت منه يدُ الغدرِ والخيانة!

.. كان الغَرض هو النَّيْل من الرُّوح المعنوية للشعب المصري وتكديره! وقد تلقَّىٰ المصريون خبر اغتيال السباعي ببالغ الأسىٰ لفقدان روح فارس من فرسان ذلك العهد، صاحب القلم الذي روىٰ العديد من الروايات التي أحبَّها المصريون وجسَّدتها الدراما مثل: رواية "رُدَّ قلبي"؛ التي ارتبطت في الأذهان بأسماء الشخصيات وكُنيتهم "علي ابن الجنايني"، أو "علي يا ويكا".. كما كان أخوه "حسين" يُناديه، و"إنچي ابنة أفنديبنا"، و"البرنس علاء"، و"عم عبد الواحد" الجنايني؛ ذلك الأب المكافح.

لم أكن عرَفتُ قراءة الروايات بعد، حتىٰ أُحبَّ يوسف السباعي الكاتب؛ لكنني كنتُ مغرمة بالأفلام المأخوذة عن قصصه.. خاصة الأفلام الوطنية التي تحكي أحداثًا واقعية، وتصف المشاعر الصادقة.

وقد استطاع يوسف السباعي أن يصلَ إلىٰ قلوب المصريين علىٰ اختلاف أعمارهم. وكم حزِنتُ لمقتل ذلك الأديب علىٰ قَدْرِ حُبي لأعمالِه؛ التي من خلالها عرَفتُ تاريخ "الضباط الأحرار"، ودورَهم في ثورة يوليو، والأسلحة الفاسدة وحرب ١٩٤٨م التي استُشهِد خلالَها عَمُ والداي: اليوزباشي "صالح عبد السلام العطار"؛ الذي عُلِّقَتْ له صورةٌ زيتية بالمتحف الحربي بالقلعة في قاعة الشهداء.

إنني أتعجَبُ لمحاولات التشكيك في وطنية القيادة المصرية، واتهامها جُزافًا بالتخلي عن القضية الفلسطينية.. في الوقت الذي يشهَدُ فيه التاريخ أنه لم تَخُل عائلة من شهيد في سبيل تلك القضية، ثم كان جزاؤنا أنهم صوَّبوا السلاح تُجاهنا، بينما عجزوا عن محاربة العدو الحقيقي!!

ويظل ماسبيرو قيمةً وقامة، مِنصةً لا يعلو عليها في الشرق الأوسط، يُعبِّر عن نبض الشارع المصري والعربي، لا يَخشىٰ لومة لائم، يَعرِض الأخبار والمستجدات بشفافية من خلال برامجه الإخبارية عبر الإذاعة والتلفزيون.

ويحكي قصص الأبطال، ويعيش معهم لحظةً بلحظة، يلمَس مشاعرَهم، ويَبرُز تضحياتهم في سبيل هذا الوطن.

عُدتُ مرة أخرىٰ أنظر إلىٰ عائلة إبراهيم من الطابق الرابع بمبنىٰ ماسبيرو.. فلا يزال عقلي يُؤرِّقني؛ بحثًا وراء سبب الوجوم الذي يُسيطر علىٰ أفراد تلك العائلة!

فقد ظنَنتُ أنهم أصبحوا سعداء بعودة البطل إبراهيم..
الذي أنتظر بفارغ الصبر مشاهدة البرنامج الذي يحكي فيه عن بطولاته أثناء القتال؛ إلا أن ما كنتُ أشاهدَه عبر إطلالتي من ماسبيرو.. لم يكن يُخبِر بذلك!
فقد كنتُ أشاهدَ جلسات طويلة تجمع بين: البطل إبراهيم، ووالدته زينب، وعفاف التي اعتادت التمسك بحجابِها في وجود إبراهيم!
وأحيانًا ما كان ينضم إليهم عم إبراهيم الكبير، حتىٰ تنتهي الجلسة بدخول عفاف مع ابنِها الصغير بمفردهما إلىٰ الغرفة المجاورة.. فتزداد حيرتي:
لماذا لا يُقيم البطل إبراهيم مع زوجتِه وابنه؟!
ولماذا تُسرع عفاف بتغطية رأسِها عند حضور إبراهيم زوجها؟
.. إنه حقًّا شيءٌ مُحيِّر!

الفصل الحادي عشر

أخبرتني أمي بالموعد الذي انتظرتُه طويلا. إنه موعد إذاعة حلقة البرنامج الذي يستضيف إبراهيم؛ أحد أبطال حرب أكتوبر.

بدأ البرنامج بعرض فيلم تسجيلي عن الحرب، وقد عرَض لقطاتٍ حقيقية لعملية العبور، وإزاحة الساتر الترابي بالماء، وتركيب الكباري، ورَفْع علم مصر علىٰ أرض سيناء الحبيبة، ثم مقتطفاتٍ من خطاب النصر الذي ألقاه الرئيس السادات أمام مجلس الشعب يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣م؛ مُعلنًا انتصاره في الحرب، والذي ألقَىٰ خلاله كلماتٍ انتبَه لها الإسرائيليون جيدًا، ووزنوها بميزانٍ من ذهب.. تلك الجُمل أنهت حربًا كانت تَعُدُّ لها إسرائيل؛ وكان نصُّها:

"ربما أُضيف لكي يسمعوا في إسرائيل.. إننا لسنا دعاة إبادة كما يزعمون". ثم كرَّر الجملة واستفاض:

"إننا لسنا دعاة إبادة كما يزعمون، إن صواريخنا المصرية عابرة سيناء من طراز ظافر موجودة الآن علىٰ قواعدها مستعدة للانطلاق بإشارة واحدة إلىٰ أعماق الأعماق في إسرائيل.

ولقد كان في وسعِنا منذ الدقيقة الأولىٰ للمعركة أن نُعطيَ الإشارةَ ونُصدرَ الأمرَ؛ خصوصا أن الخُيلاء والكبرياء الفارغة أوهمتهم بأقدر مما يقدرون علىٰ تحمُّل تبعاتِه.. لكننا نُقدِّر مسئولية استعمال أنواع معينة من السلاح، ونَردُّ أنفسَنا بأنفسِنا عنها، وإن كان عليهم أن يتذكَّروا ما قلتُه يومًا، ومازلتُ أقولُه: العينُ بالعين والسِّن بالسنِّ، والعُمق بالعمق".

إنها رسائل واضحة أكَّد عليها السادات، وكانت ردًّا واضحًا علىٰ المعلومات التي وصلت إلىٰ القيادة المصرية، تؤكِّد علىٰ أن إسرائيل تَعُدُّ العُدَّة لحرب مدن وضرب أهداف استراتيجية؛ بهدف تخفيف القتال علىٰ الجبهة، وإجبار الجيش المصري علىٰ قبول وقف إطلاق النار.

بدأ مقدم البرنامج بإلقاء التحية علىٰ كل ضباط وأفراد الجيش المصري، ثم قدَّم نُبذة عن المقاتل إبراهيم أشاد فيها بشجاعتِه وبطولتِه، ثم طلب منه أن يَحكيَ قصتَه من البداية.. وحتىٰ عودته إلىٰ أرض الوطن.

"بعد إتمام دراستي بمعهد إعداد الفنيين الصناعيين للإلكترونيات شُعبة فني لاسلكي؛ انضمَمتُ إلىٰ صفوف الجيش المصري لتأدية الخدمة العسكرية في

ديسمبر ١٩٧٢م، وتم إرسالي إلىٰ الجبهة؛ للخدمة في كتيبة صواريخ للدفاع الجوي علىٰ خط القناة.

وبرغم أن قواعد الصواريخ تُصمَّم للبقاء في أماكنها؛ فإن القيادة العسكرية كانت تَستخدم تكتيكًا حربيًا مختلِفًا، يعتمد علىٰ الخداع الاستراتيجي؛ حيث كنا نتدرَّب علىٰ فَك المحطات وتحميل الصواريخ والتنقُّل من مكانٍ إلىٰ آخر، حتىٰ لا يتم رصدُها من جانب العدو!

وضمَّت الكتيبة المهندس والفني والدبلوم.. إلىٰ جانب مجموعة من الضباط حديثي التخرج.

وقد توطَّدت العلاقاتُ بيننا، حتىٰ أصبحنا كالعين واليد؛ فإذا تألَّمت اليدُ دَمعت العين.. وإذا دمعت العينُ؛ مسحَتْ دموعَها اليدُ.

كان العمل بالكتيبة عملاً شاقًا، فضلا عن التدريبات التي كانت تتضمَّن طلعات جوية لطائراتنا، والتي كان عددُها يتجاوز الثلاثين طائرة في كل مرة. وقد كنت مسئولاً عن إرسال إشارات التعارف من المحطة.

لم نكن نشعر بالتعب أو الضجر؛ بل كنا نتململ من طول الانتظار، ونتمنىٰ أن نُحرِّر الأرضَ من المعتدي الصهيوني، ونثأر للشهداء الذين سبقونا.

وفي فجر يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣م؛ كنا نستمع إلىٰ قرآن الفجر من الراديو؛ وإذا بالقارئ الشيخ/ "محمد أحمد شبيب" يقرأ آياتٍ من سورة آل عمران، وهي آياتُ الشهادة في سبيل الله: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا في سَبيل اللَّهِ أَمواتًا بَل أَحياءٌ عند رَبِّهم يُرزَقُون}. وقد أخذ يُكرر تلك الآيات ويتضرَّع بها إلىٰ الله؛ فاستبشرنا بها جميعًا مسلمين ومسيحيين!

وطوال الشهور السابقة علىٰ الحرب؛ كنا نشعر بأن هناك تحركات وشيكة، وقد تكَهَّن الكثيرون منا بساعة الصفر أكثر من مرة؛ إلا في يوم السادس من أكتوبر!

فكُلُّ المؤشرات كانت تُؤكِّد أنه ليس هناك حرب مُتوقَّعة في ذلك اليوم؛ حيث كان يومًا عاديًّا، وكان الجنود صائمين وفي حالة استرخاء. وقد استمر الأمر علىٰ ذلك الحال حتىٰ الساعة الثانية عشرة ظهرًا؛ أي قبل ساعة الصفر بساعتين.. ثم انقلب المشهد إلىٰ النقيض تمامًا!

فقد اجتمع بنا القائد، وأبلغنا أننا في انتظار الأوامر للتوجّه إلىٰ الجبهة، ولما صدرَت لنا الأوامر بالتحرك؛ أخذ الجنود يهتفون: سنقاتل.. الله أكبر .. الله أكبر.

جرىٰ فَكُّ الكتيبة وتحميلُها علىٰ عربات القطار

المُخصَّص في وقتٍ قياسي. وكنا جميعًا نشعر بطاقة تفوق قدراتنا.. كأنَّ الله أرسل لنا جنودًا من الملائكة يخوضون القتال معنا!

كانت وِجْهتُنا سرية؛ حيث تم توجيهنا إلىٰ مدينة المنصورة. وقد حدث اشتباكٌ بين قواعد الصواريخ وطائرات العدو، وتمكَّنا من إسقاط بعضِها. ثم اتجهنا إلىٰ بور سعيد؛ وكان المصريون علىٰ طول الطريق يحتفون بنا، وكانوا يُقدِّمون لنا كل ما لديهم من أطعمة.. فضلا عن الدعوات والتهليل والتشجيع.

اتخذتُ موقعي أثناء نقل المحطة علىٰ متن إحدىٰ العربات؛ حيث كنا نتعمَّد توسيع المسافات بين العربات.. حتىٰ لا نكون هدفًا سهلا للعدو.

وصلنا إلىٰ المنطقة المحدَّدة لنا، وكان علينا أن ننتهيَ من تجميع الهوائيات في وضع أفقي علىٰ الأرض؛ حتىٰ نكونَ جاهزين للقتال قبل الصباح.

كنا نعمل علىٰ قدمٍ وساق.. غير مبالين بما يُصيبُنا من جروح أو إصابات أثناء العمل؛ وكان كل هدفنا إتمام العمل حتىٰ ولو كان الثمن هو حياتنا!

عند شروق الشمس بدأت طائرات العدو الدخول إلىٰ منطقة بور سعيد؛ ظنًّا منهم أن تلك المنطقة خالية من

الصواريخ! ثم لما أطلقنا صواريخنا تجاههم، وأسقطنا عددًا كبيرًا من طائراتهم؛ أصابَهم الذعر، وبدأوا يفرون من شِدَّة القصف!

توقَّعنا هجومًا جويًّا علينا؛ فبدأنا في تنفيذ خطة التضليل. ثم قمنا بإطلاق قنابل دخان، وإحراق براميل سولار لجذب الصواريخ الحرارية بعيدًا عنا.

وبالفعل بدأت الطائراتُ الإسرائيلية تتجمَّع في مجموعات على مسافة قريبة جدًّا من بعضها البعض؛ كي تَظهرَ لنا كهدفٍ واحد! وكان طيارو العدو يدخلون بمجموعات من الطائرات في اتجاهات مختلفة.

وقد قابلنا ذلك التكتيك بطريقة أكثر احترافية؛ حيث كنا نقوم بضرب الأهداف الأكثر قُربًا، ثم نستدير لضرب الأهداف البعيدة. وكل هذا كان يتم في ثوانٍ معدودة.

وقد أبلغتنا كتائبُ الصاعقة أننا أسقطنا طائرتين متقاربتين بصاروخ واحد.. سقطتا في منطقتهم! كذلك كانت هناك بعض الطائرات المنخفضة التي دخلت بحيرة المنزلة؛ فاصطدمت بالمستنقعات.. وهي تحاول الفرار من صواريخنا!

كانت لحظاتٍ لا تُنسَى، وكان شعورُنا لا يُوصَف عندما سمعنا من راديو القاهرة البيان الذي يتحدث عن عدد الطائرات التي أسقطناها.

واستمرت تلك المعارك لعدة أيام، حتىٰ صدرت لي أوامر من النقيب/ "كريم الشرقاوي" قائد الكتيبة بالعودة إلىٰ القاهرة لتلقِّي العلاج.

.. هنا قاطعه مُقدِّم البرنامج قائلا:

- هل أُصبتَ في المعارك؟

.. فأجاب: "نعم أُصبتُ من اليوم الأول؛ فقد وقع علىٰ قدمي اليمنىٰ هيكلٌ حديدي أثناء تركيب المحطة، فحدث تمزق في الأربطة.. فضلا عن عدة شظايا في الساق اليسرىٰ.

- هل كنتَ تشعر بألم؟

- لم أكن أشعر بشيء، وقد نسيتُ ما حدث؛ إلا أن النقيب كريم لاحظ الورم الذي أصاب قدمي، والنزف الذي يَسيل من ساقي اليسرى.

ولم تُفلح توسلاتي له بالبقاء معهم؛ فقد قال لي: "إن جرحَك يحتاجُ إلىٰ تطهير، ولو بقيتَ هنا ستموت، ونحن نحتاجُ إليك حيًّا"!

- هل كنتَ تتوسَّل إلىٰ القائد؛ لتظلَّ في أرض المعركة؟ وهل هانَتْ عليك نفسُك إلىٰ هذا الحد؟! ألم

تُفكِّر في عائلتك.. فكما عرَفتُ منك قبل التصوير أنك كنتَ حديث الزواج، وكانتْ زوجتُك حاملا!

– كنا جميعًا نتوسَّل إلىٰ القائد لكي نظلَّ في أرض المعركة؛ وذلك رغم الإصابات التي كنا نُعاني منها.

ولم نكن نُفكِّر في أي شيءٍ غير تحرير الأرض، أما الأهل؛ فكنا نؤمن بأن لهم ربًّا يرعاهم، وقد أوصانا سبحانه ألا نتولَّىٰ يوم الزحف.

وكانتْ قناعتنا أننا إن عشنا؛ عدنا إلىٰ أهلنا مرفوعي الرأسَ.. فنحن نُحارب من أجلِهم، وإن استُشهدنا؛ فكنا سنكون لهم شفعاء بإذن الله، وموعدنا معهم في جَنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرض.

– الله يفتح عليك يا ابني، انتَ مثال مشرف للجُندية المصرية، والحديث معك ممتع.. لكننا ملتزمون بوقت البرنامج.

.. ثم يختم المذيع الحلقة بقوله:

– وللحديث بقية مع الجندي المقاتل البطل/ إبراهيم شعبان الأسبوع المقبل في نفس الموعد، والسلام عليكم ورحمة الله.

.. هكذا اختُتِمَ اللقاءُ الأول مع البطل إبراهيم.

الفصل الثاني عشر

كان العام ١٩٧٨م زاخرًا بالمفاجآت والمناورات من الجانب الإسرائيلي؛ حيث ظلَّتْ إسرائيل – كعادتها – تُماطل وتُجادل وتَسحب وعودَها.

وكانتْ عدة قنوات إخبارية أجنبية؛ قد حرَصت علىٰ تسجيل لقاءات مع الرئيس المنتصر الذي يَمُدَّ يدَه بالسلام. وفي مقابلة للسادات مع الإذاعة البريطانية؛ سألَه أحد المذيعين.. قائلاً:

– سيدي الرئيس: هل يُمكنني أن أسألكم قبل أي شيء آخر.. منذ قيامكم بمبادرتكم قُرب نهاية العام الماضي: هل هناك أي شعور بخيبة الأمل في عملية السلام؟!

.. وكان جواب الرئيس: نعم بالتأكيد. فهناك أحيانًا شعورٌ بخيبة الأمل؛ ولكن في الحقيقة ينبغي أن أقول لك هذا، فمثلما نحن جالسون هنا في الإسماعيلية الآن.. دعوت مستر بيجين ليجتمعَ معيَ هنا في الإسماعيلية.

لكني في الحقيقة أُصبِتُ بدهشةٍ؛ عندما علمتُ أنه طلب أن يقوم الجيش الإسرائيلي بحماية المستوطنات التي أُقيمت في شمال سيناء.. وإني أعتبر ذلك بمثابة إهانة!

وقد زرتُهم هناك في القدس، وعندما ردَّ هو الزيارة؛ طبقًا لتقاليدنا العربية.. فبدلا من أن يَبْذُلَ ما في وسعه ليشكرني علىٰ ما فعلتُه، ونَعبُر فوق كل تراث القرون والمرارة ونحو ذلك؛ يأتي ويقول: سأحتفظ بالمستوطنات وأحميها بالجيش الإسرائيلي.. وأنا قد أخذتُ ذلك الكلام في الحقيقة علىٰ أنه أضحوكة!

– هل لا تزال متفائلا علىٰ أمل أن يُوافق الإسرائيليون علىٰ الانسحاب إلىٰ حدود ما قبل يونية ١٩٦٧م؟ وهل تعتقد بوجود مثل هذا الاحتمال؟

.. السادات: ليس هناك احتمالٌ آخر غير ذلك؛ وسواء كان آجلا أم عاجلا: فإن هذا الأمر محتوم وحقيقة واقعة.

وخلال حديثٍ آخر للرئيس السادات إلىٰ شبكة تلِفزيون "سي. بي. سي" الأمريكية؛ قال المذيع:

– لقد أدَّىٰ القرار الذي اتخذتْه الحكومة الإسرائيلية بالاستمرار في معارضة أي نوع من السيادة العربية علىٰ الضفة الغربية المحتلة وقطاع غزة إلىٰ احتمال انهيار جهود السلام التي استمرت لمدة سبعة أشهر: وعن طريق القمر الصناعي؛ سألتُ اليوم الرجل الذي استهلَّ تلك الجهود.. الرئيس أنور السادات:

هل سيحدث ذلك؟

وكان ردُّ الرئيس:

- ينبغي أن أقول بصراحة تامة إن البعض يقولون إن مبادرتي سوف تموت! وإنني أقول دائمًا لكل هؤلاء إن مبادرتي لن تموت؛ لأن الرأي العام العالمي بأسره قد أيَّدها.. وبصفة أساسية الرأي العام الأمريكي، وإنني أعتقد بأن الولايات المتحدة إذا تحمَّلت مسئوليةً كاملة كشريك كامل؛ فسوف يُمكن إعادة كل شيء إلىٰ نِصابه مرة أخرىٰ.

وخلال لقاء للسادات مع التلِفزيون الإيطالي؛ طُرِح عليه السؤال التالي:

- ما رأيكم حول اقتراح إسرائيل لعقد صلح منفرد مع مصر؟

وأجاب الرئيس: في رحلتي للقدس، ثم في كلامي في الكنيست وللشعب الإسرائيلي، ثم بعد ذلك في زيارة بيجن للإسماعيلية، وفي لقائنا هناك يوم ٢٥ ديسمبر الماضي.. أفصحتُ عما أريد. وما أُريدُه هو:

السلام في المنطقة. حتىٰ أكثر من هذا؛ فقد قلتُ أمام الكنيست وأُعيد:

السلام؛ وليس اتفاقًا منفردًا. وحتىٰ ولو توصَّلتْ إسرائيل إلىٰ اتفاق مع مصر ومع سوريا ومع الأردن؛ من دون حلٍ القضية الفلسطينية.. فلن يقومَ السلامُ؛ لأننا بعد خمس أو عشر سنوات سنعودُ مرةً أخرى إلىٰ الحرب!

صحيح إنني لم أتكلَّم عن مصر فقط، ولكن الكل يعرف وإسرائيل تعلم أن القوة الحقيقية هي هنا في مصر.. قرار الحرب، أو قرار السلام يُتخَذ هنا في مصر.

هكذا كان الغرب يسأل، وكان الرئيس يجيب! واستعادت مصر شمسَها الذهبية، وتحوَّل الرأيُّ العام العالمي إلىٰ جانب مصر التي يقودها رجلٌ من زمن البطولات، لا يخشىٰ في الحق لومة لائم.

رجلٌ جلس بجانب "موشي ديان" في جلسة ودية لإجراء مباحثات السلام وقد ارتدىٰ "كرافَت" تحمل شعار النازية.. في رسالة واضحة إليهم: أن مصر تطلب السلام بعِزَّة وكرامة؛ وإلا فلن نتوانىٰ عن حقِّنا في استرداد الأرض بالقوة!

الفصل الثالث عشر

كانت هناك الكثير من الخبايا وراء قبول الرئيس قرار وقف إطلاق النار؛ فالموقف كان في غاية التعقيد.
ونقلا عن كتاب "البحث عن الذات" الذي كتبه الرئيس السادات؛ فإن القمر الصناعي الأمريكي كان يُوصِّل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة، بعد نداء "SAVE ISRAEL"، وأن روسيا لم تُبلِّغنا بشيء بواسطة أقمارها الصناعية التي كانت تُتابع المعركة منذ لحظة بدئها إلىٰ لحظة وقف إطلاق النار!
"ظلَّلتُ عشرة أيام أحارب فيها أمريكا وحدي بأسلحتِها الحديثة التي لم تُستَخدم من قبل، وكان الموقف علىٰ غير ما يتصوره العالم كله. فقد كان اعتقاد الجميع في العالم أن الاتحاد السوفيتي يقف إلىٰ جانبنا، وأنه قد أرسل الكوبري الجوي لنجدتنا.
ولكن الموقف كان غير ذلك في الواقع؛ فأمريكا وإسرائيل في مواجهتي، والاتحاد السوفيتي في يدِه الخنجر ويقبع وراء ظهري ليَطعنِّي في أية لحظة، عندما أفقد ٨٥٪ أو ٩٠٪ من سلاحي.. كما حدث في سنة ١٩٦٧م".

"في ديسمبر ١٩٧٣م كنت مستعدًا لتصفية الثُّغرة؛ فقد بدأت قواتنا حرب استنزاف ولم يتوقف ضغطُها على الثُّغرة لحظةً واحدة؛ مما جعلنا نكسب دائما.. أنا فعلا كنت علىٰ أتم الاستعداد لتصفية الثغرة؛ خاصة أنه ليست أمامي قناة لعبورها، ولا خط بارليف للقتال معي!

لكن الخطر الذي كان أمامي؛ هو: تدخل أمريكا. ففي ديسمبر جاء "كيسنجر" وقلت له: "أنا مش مستعد أقبل الأسلوب إللي هم ماشيين به دا، وأنا ها أصفي الثغرة".

فقال لي: "أنا قبل أن أحضر إليك عرفتُ أنك جاهز، وقد طلَبتُ صورةِ الموقف من البنتاجون؛ فأعطوني تقريراً كاملا. حائط صواريخك يتكوَّن من كذا، بطارية دباباتك حول الثغرة ٨٠٠ دبابة، مدافعك عددُها كذا وتستطيع فعلا أن تُصفِّي الثُّغرة.. ولكن اعلم أنك إذا فعلتَ هذا سيضرِبُك البنتاجون"!

قلت له: "هذا هو السؤال.. ما هو موقف أمريكا؟".

فقال لي: "سيضرِبُك البنتاجون.. سيضرِبُك البنتاجون؛ لسببٍ واحد.. وهو: أن السلاح الروسي قد انتصر

علىٰ السلاح الأمريكي مرة، ولن يُسمَح له في الاستراتيچية العالمية بتاعتنا أن ينتصرَ للمرة الثانية"!

.. هكذا كان موقف القوتين العُظميين حين ذاك، وإنما سرعان ما تبدَّلت الأحوال عندما حقَّقت مصر الانتصار غير المتوقِّع؛ الذي أذهل العالم أجمع، وأذهل إسرائيل نفسها! عندما أصبح لهذا الوطن دِرعٌ وسيف.

في عام ١٩٧٤م أخبر الرئيس السادات وزير الخارجية الأمريكي "هنري كيسنجر" - الذي كان في زيارة لمصر عقب فض الاشتباك الأول - بعزمِه علىٰ إعادة فتح قناة السويس؛ حيث كانت البحرية الأمريكية هي الوحيدة التي تمتلك المعدات التي تصلُح لتطهير القناة.. فما كان من "كيسنجر" إلا أنه سأله:

- هل تقبل أن تدخل بور سعيد حاملة الطائرات الهليكوبتر "أيو جيما"؛ وهي من قطع الأسطول السادس وتحمِل الهليكوبترات ومعدات التطهير لكي تبدأ في مساعدتك؟

- نعم.

هكذا أجاب الرئيس السادات، ثم عاود كيسنجر الاتصال بالرئيس ليبلغه بدخول "أيو جيما" خلال

يومين لتتعاون في عملية تطهير القناة تحت قيادة البحرية المصرية.

ودخلَتْ "أيو جيما" علىٰ استحياء ميناء بور سعيد؛ وهي تتلمَّس خطاها.. وقد حظَيتْ باستقبالٍ دافئ لم تكن تتوقَّعُه من قِبل البحرية المصرية.

"ومن هنا أتوجه بالشكر إلىٰ الشعب الأمريكي.. فهذه هي روح الفروسية الأمريكية، وهذا هو الوجه الحقيقي لأمريكا.. فالقناة ليست لمصر فقط؛ بل من أجل رخاء العالم كله.

وأمريكا بإمكاناتها العملاقة.. المفروض؛ بل المتوقع منها أن تقفَ إلىٰ جانب كل من يحتاج إلىٰ معونة، من أجل حياة أفضل له وللعالم كله".

"هكذا كانت صورة أمريكا ولا تزال عندي، وعند شعبِنا المصري العريق؛ الذي دأب عبر تاريخ البشرية علىٰ احترام القيم الإنسانية والحفاظ عليها".

تلك السطور كتبَها الرئيسُ السادات بيده في كتابه "البحث عن الذات"؛ الذي وصف خلاله مراحل التحول الواضح للسياسة الخارجية المصرية. فقد توطَّدت العلاقات المصرية – الأمريكية منذ تولِّي الرئيس الأمريكي "چيمي كارتر".

وقد قام الرئيس "السادات" بزيارة أمريكا عام ١٩٧٨م؛ وذلك من أجل التفاوض لاسترداد الأرض. وقد أطلقت الصحافة حينذاك عليها "الزيارة التاريخية".

وفي عام ١٩٧٩م؛ جرىٰ توقيع اتفاقية السلام في "كامب ديڤيد" بين مصر وإسرائيل؛ وقد وقَّعها: الساداتُ، ورئيس وزراء إسرائيل، برعاية الرئيس الأمريكي چيمي كارتر.. وعلىٰ إثرها؛ بدأت إسرائيل في إعادة الأراضي المصرية المحتلة.

ولاحقًا؛ حصل كلٌّ من: الرئيس السادات، ومناحم بيجن علىٰ جائزة نوبل للسلام مناصفةً.

إنه السادات؛ القائد الذي سبَق عصرَه، وللأسف اتُهِم بالخيانة والتفريط!

والذي كان قد تولَّىٰ مسئولية البلاد خلال فترة عصيبة وصراعات علىٰ الجبهة الداخلية والخارجية؛ متمثلة في:

ضغط الشعب الثائر علىٰ الهزيمة.

وسيطرة مراكز القوىٰ، علىٰ كل أجهزة الدولة.
وحالة التدهور الاقتصادي؛ جراء الدخول في عدة حروب، فضلا عن نقص الأسلحة والعتاد، وعدم مساندة الحليف السوڤيتي؛ الذي كان يَعِد بتوريد السلاح ثم يُماطل.. وفي وقتٍ كانت أمريكا تَمُدُّ فيه العدو الصهيوني بأحدث الأسلحة من مصانعها؛ مما اضطر السادات إلىٰ طرد الخبراء الروس الذين كانوا يُعيقون العمليات العسكرية خلال حرب الاستنزاف!

هكذا خاض السادات حربًا ضروسًا، وانتصر في ظل تلك الظروف الصعبة.
ثم استردَّ الأراضي المصرية؛ من خلال مفاوضات مضنية مع عدوٍ لا عهدَ له؛ مُتجنِّبًا إراقة مزيد من الدماء.
ونجح في كسب ثقة واحترام أمريكا؛ التي توسَّطت في عملية السلام.

.. رحم الله رُوحَه الطاهرة، وأسكنَه جنان النعيم مع الشهداء والصديقين.

الفصل الرابع عشر

تَجدَّد اللقاء مع إبراهيم شعبان؛ لاستكمال سرد قصة بطولته، حتىٰ عودته إلىٰ أرض الوطن. وفي الحلقة الثانية للبرنامج الذي استضاف أبطال أكتوبر؛ بدأ البرنامج بعرض مقتطفات مختصرةِ من الحلقة الأولىٰ لتذكرة المشاهدين بقصة البطل العائد من الأَسْر؛ ثم بدأ البطل يواصل سردِ أحداث قصته من جديد:

"عدتُ إلىٰ القاهرة لتلقِّي العلاج الذي لم يَستغرق طويلا؛ بضعة أيام فقط.. فقد كنتُ متلهفًا للعودة إلىٰ جبهة القتال مرةً أخرىٰ.

وكانت الأوامر قد صدرت خلال تلك الفترة بفك الكتيبة والعودة بها إلىٰ القاهرة، وإحلال كتيبة أخرىٰ بها علىٰ الجبهة.

وفي يوم ١٦ أكتوبر؛ صدرت لنا الأوامر بالتحرك في اتجاه مدينة السويس، وكذلك مجموعات من الدبابات والمدفعية وناقلات الجنود وقوات الصاعقة. إنه كان الطوق الحديدي المُكلَّف بمحاصرة قوات العدو التي تمكَّنتْ من التسلل إلىٰ غرب القناة.

انتهينا من تمركُز الكتيبة في مواقعها المُحدَّدة، ثم وصلت تعليمات من القيادة العليا بتحرك مجموعة أفراد من المحطة لدعم كتيبة الصواريخ ذات المدىٰ البعيد؛ لنَصْب كمين لطائرات العدو فوق الثُّغرة.. وذلك لحماية سماء جيشِنا بسيناء في حالة تَجدّد القتال.

انضمَّمتُ إلىٰ تلك المجموعة وتحرَّكنا ليلا، حتىٰ دخلنا وسط قوات العدو المتسلِّلة. كانت مهمَّتُنا غاية في الخطورة لقُربنا من القوات المعادية.

وصلنا إلىٰ موقعنا بسلام، وكنا في حالة تأهب لعدة أيام متتالية، حتىٰ رصدنا اقتراب طائرات استطلاع؛ فانطلقت صواريخُنا لتُسقِطَ طائرتين للعدو.. لنكونَ بذلك قد أنجزنا مهمتنا بنجاح.

يوم ٢٢ أكتوبر ورَدَت إلينا أخبار بقبول الرئيس قرار وقف إطلاق النار، بعد أن ذهب إلىٰ غرفة العمليات؛ ومن هناك أعطىٰ أوامر بضرب صاروخين "أرض.. أرض"؛ اثنين فقط علىٰ الدفرسوار.

فقد أراد بذلك أن يُوجِّه رسالة إلىٰ إسرائيل أن مصر تمتلك ذلك السلاح؛ وهي قادرة علىٰ استخدامه في أي وقت.

سأله مُقدِّم البرنامج:

– ماذا كان موقف الجنود من قبول قرار وقف إطلاق النار؟

فأجاب البطل إبراهيم:

– كنا نأمل أن نَستكمل الحرب، ونُحقِّقَ أهدافنا كاملة، ونُحرر الوطن ونسترد كل شبر من أرض سيناء. وقد كنا قادرين على تحقيق ذلك؛ فقد كانت الروح المعنوية عالية، وكنا جميعا على قلب رجل واحد.. إلا أننا كنا نثق في قرارات قادتنا.

– الحرب تُعتَبر قد انتهَتْ بقبول قرار وقف إطلاق النار.. فكيف إذن تمَّ أسرَك من قِبل القوات الإسرائيلية؟

هكذا سُئل إبراهيم؛ الذي استكمل روايته قائلا:

– إن اليهود ليس لهم عهد. تلك هي عادتهم منذ بدء الخليقة؛ فبعد الانتهاء من مهمتنا التي تحدثت عنها، وبعد قرار وقف إطلاق النار؛ صدرت لنا الأوامر بالعودة إلى الكتيبة الخاصة بنا.. لكن إسرائيل خرقت القرار وقامت بهجوم بعد وقف إطلاق النار بساعتين؛ بهدف توسيع الثُّغرة لتمتدَّ قواتُهم خلف الجيشين الأول والثاني، حتى ينقطعَ خط إمداد الجيشين ويتراجع خط

الدفاع الجوي إلىٰ الخلف، فتفقد الجيوش الأمامية الحماية.. ويُحاول الإسرائيليون الاستيلاء علىٰ مدينتي: الإسماعيلية والسويس؛ في محاولة يائسة من جانبهم لإنقاذ سمعتهم أمام العالم.. إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك!

– ولكن تعرضتم للهجوم؟

– نعم. كنا في طريق العودة وتعرَّضنا للهجوم، وقفزتُ من السيارةِ التي كانت تُقلُّنا، وفقدتُ الوعيَ تمامًا، حتىٰ وجدتُ نفسي أسيرًا معصوب العينين في سجون العدو.

– كيف تم الإفراج عنك؟

– أُفرِج عني مع مجموعة من الزملاء في صفقة لتبادل الأسرىٰ، بعد زيارة الرئيس لإسرائيل.

– كيف كان أول لقاء لك مع الأسرة؟

– ظلَّ المُقدِّم/ كريم الشرقاوي – الذي كان قائدًا لكتيبتي برتبة نقيب أثناء الحرب – علىٰ اتصال بوالدتي، وكان يُقدِّم لها العون طيلة فترةِ غيابي.

– لكن كما عرَفتُ؛ فقد تسلَّمتْ أسرتُك شهادة وفاة باسمك!

– نعم؛ فقد اعتبروني في عِداد الموتىٰ. وقد استُخرِجتْ

أوراقٌ رسمية تُفيد بذلك؛ فصدرَت لي شهادة وفاة.. وكان ذلك أمرًا ضروريًّا؛ حتىٰ تستطيعَ أسرتي الحصول علىٰ مستحقاتي.

– وكيف استقبَلت الأسرة خبر رجوعك؟

.. اقترح عليَّ بعضُ الزملاء أن يقوموا بالتمهيد للأسرة أولا قبل أن أذهب اليهم؛ نظرًا للتغيرات التي حدثت نتيجة غيابي عنهم.. إلا أنني فضَّلتُ أن أقابلَهم بنفسي؛ فأحيانًا يكون التمهيد أصعب من اللقاء نفسه!

استشعَر مُقدِّمُ البرنامج أن هناك أمورًا شخصية يتحفَّظ إبراهيم في التحدث عنها، فاكتفىٰ بذلك القدر، واستقبل خلال البرنامج اتصالاتٍ من رجال أعمال وطنيين يتبرعون بمبالغ مالية لإبراهيم؛ كي يستطيعَ أن يبدأ مشروعًا تجاريًا يكتسب منه قُوت يومِه، بعد انقضاء سنواتٍ عجاف في الأَسْر.

وهكذا بين ليلةٍ وضحاها؛ تغيَّر حالُ إبراهيم.. وكأنما الدنيا بدأَتْ تفتَحُ له أبوابَها!

اختتم مُقدِّمُ البرنامج حديثَه مع إبراهيم؛ بعد أن قدَّم له التحية والتقدير، ونوَّه في ختام الحلقة بأنه سيَعرِض في الأسبوع القادم قصة البطل الشهيد "موشي زكي رافي".

فمن هو: موشي زكي رافي؟

إنه "عمرو مصطفى طلبة"، أو "العميل ١٠٠١" طالب الهندسة الوطني، الذي تمَّ زرعُه من قِبل المخابرات المصرية داخل تل أبيب؛ ليعملَ بمكتب المراسلات العسكرية الذي يقوم بإرسال واستقبال الرسائل من: تل أبيب إلىٰ الجبهة والعكس.

وقد استطاع أن يَمُدَّ المخابرات المصرية بالمعلومات اللازمة، ثم انتقل إلىٰ الجبهة بسيناء بالتنسيق مع الجانب المصري. وفي يوم السادس من أكتوبر ٧٣ تلقَّىٰ البطل عمرو طلبة تعليمات من المخابرات المصرية بضرورة ترك موقعه "تبَّة أم مرجم" الذي يَضُمُّ سلاح الإشارة؛ حيث تقرر تدميرُه.. إلا أن عمرو استمر في موقعه ليَمُدَّ المخابرات المصرية بمَزيدٍ من المعلومات، حتىٰ استُشهد!

وقد جرىٰ انتشال جثمانه بواسطة مجموعة من الضباط ذوي الرتب العالية؛ حيث هبطوا بطائرة هليكوبتر للبحث عنه، بعد سيطرتِهم الكاملة علىٰ الموقع أثناء الحرب.

وبرغم أنه كان يرتدي زي المقاتل الإسرائيلي؛ فإنهم طلبوا من الجنود قراءة الفاتحة علىٰ روحه، وجرىٰ نقلُه

ملفوفًا بعلم مصر، وتمَّ تسليمُه إلىٰ أهله، وصُلِّي عليه ودُفن في أرض الوطن. ثم مُنِحَ رتبة "رائد" بالقوات المسلحة.. إنه مِمَّن قال فيهم الله عزَّ وجل: {مِنَ المُؤمنين رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ علَيه}.

إنها قصة بطولة عرفناها وعرفنا بطلَها الشهيد/ عمرو طلبة، وكم من بطولات وشهداء لم نَعرِف عنهم شيئًا.. رحلوا إلىٰ أعلىٰ الجِنان في هدوء!

.. رحم الله شهداء هذا الوطن العظيم.

الفصل الخامس عشر

ليست التضحيات مقصورة علىٰ مَن رحلوا عن عالمنا فقط. إنما هناك آخرون قدَّموا لنا الكثير.. تركوا بيوتَهم لسنواتٍ عجاف؛ تكبَّدوا خلالها آلامًا وأوجاعًا، وتمنَّوا الرجوعَ للأهل والأحباب.

لكنهم حين عادوا؛ وجدوا أنهم ليسوا وحدَهم مَن تعرضوا لثُغرة داخل صفوفِهم؛ بل إن هناك ثُغرةً أُخرىٰ أصابتْ بيوتَهم؛ فتمزَّقَتْ!

وتلك الثُّغرة لم تكن مِن صُنع الأعداء؛ بل كانت من صُنع المعارف والجيران.. شخصيات طفيلية سعَت إلىٰ تحقيق رغباتها المريضة؛ وكانت تتلَّون كالحيَّات، حتىٰ تصلَ إلىٰ أغراضِها الدنيئة!

فبعد غيابٍ طويل دام لأكثر من أربع سنوات؛ عاد إبراهيم إلىٰ أهلِه. ارتمَىٰ في أحضان والدته، ثم بحث عن زوجتِه وابنِه.. الذي لم يكن رآه من قبل! نظرَ في عينيْ عفاف؛ فقرأ فيهما الكثير، وشعر برعشةِ يدِها؛ وهو يُقبِّلُها!

حقًّا لقد كانت هناك الكثير من المستجدات التي شعَر بها إبراهيم الإنسان. إنه لم يُرِد أن يُبلِّغَ أحدٌ أهلَه بأنه

لا يزالُ حيًّا قبلَ لقائه بهم؛ لأنه كان علىٰ علم أنهم تسلَّموا شهادة وفاته؛ فخشيَ علىٰ زوجتِه من التوابع.. وهو يعلَم تقاليد المنطقة التي تربَّى فيها؛ إلا أن ذلك لم يمنع عفاف من أن ترتمي في حضنِه، وكأنها تقول له في صمت: أدركني؛ فهمسَ في أذنِها قائلا: "مهما حدث؛ فلن أتركَكِ أبدًا".. فارتفع صوتُ نحيبِها أكثر فأكثر!

كان آخر لقاء بين إبراهيم وعفاف يوم ١٤ أكتوبر ٧٣م؛ عندما مَرَّ عليها، بعد أن ضمَّد جَراحَه في عُجالة، وطلب أن يعودَ إلىٰ الجبهة مرة أخرىٰ. إنه اليوم الذي علِم فيه أنها تحمِلُ في أحشائها ابنَه. وكانتْ قد تعلَّقتْ به؛ متوسِّلة إليه ألا يتركُها، وأن يظلَّ بجانبِها.. إلا أنه قال لها:

- طيب أَوري وشي لابني إزاي؟!

- إزاي أربيه، وأعلِّمه الواجب.. وأنا سِبت زمايلي يموتو وهِربت؟!

- أنا عاوز أعلمه معنىٰ الرجولة.

فقالت له عفاف:

- ولو طلعت بنت؟

– لو طلعت بنت؛ ها أعلمها معنىٰ العطاء، وها أسميها عفاف.. علشان اسمك دايمًا يبقىٰ جنب اسمي!

فابتسمت عفاف، وأضافت:

– ولو طلع ولد ها نسميه إبراهيم.

.. أومأ إبراهيم برأسِه علامة الموافقة، ثم وضعَ يدَه علىٰ بطن عفاف، وبدأ يُوصِي إبراهيم الجنين!

طلَب منه أن يرعىٰ أمَّه في غيابه، وأن يكونَ سندًا لها مِن بعدِه.

.. هكذا افترقا؛ فقد عاد إبراهيم إلىٰ الجبهة يُقاتل إلىٰ جنب زملائه، حتىٰ صدرت لهم الأوامر بالتحرك بعد قرار وقف إطلاق النار؛ فاعترضتهم قوات العدو الغاشم التي لا تلتزم بعهد، وأطلقت عليهم القذائف.

وقد سقطَتْ قذيفةٌ أمام السيارة التي كانت تُقلُّهم فانطلقوا خارجها. وقد أمرهم القائدُ كريم الشرقاوي أن ينقسموا إلىٰ مجموعتين، وأن يتجهوا تجاه مزارع المانجو التي كانت علىٰ مرمىٰ نظرهم.

إلا أن إبراهيم – الذي كان قد أُصيب في قدميه – أراد أن يجعلَ نفسَه هدفًا سهلاً للعدو؛ كي يحميَ زملاءه.

فأخذَ يركُض ببطء في اتجاه القذف، حتىٰ يتمكَّن زملاؤه من الفرار. وقد كان يعلم أن إصابته لن تُمكِّنَه من الاختباء؛ فاختار أن يَفديَ زملاءه، حتىٰ سقط أسيرًا في يد العدو!

في البرنامج التلفزيوني؛ لم يَحك إبراهيم تلك الجزئية عندما سُئل عن ظروف أَسْره؛ فهو لا ينتظر التقدير من أحد. هكذا هو.. إنه رجلٌ من زمن الوفاء.

ركض الأب شعبان يبحث عن أخبار ابنِه المفقود من دون جدوىٰ، حتىٰ توفَّاه الله. وقد تدهورت حالة الأسرة؛ بعد فقدان الابن الأكبر، ثم الأب. وتراكمت عليها الديون؛ فاضطرت الأم للعمل.

وبرغم مساعدات أهل المنطقة للأسرة؛ فإن عِزَّة نَفْس زينب دفعتها إلىٰ العمل، حتىٰ لا تكون عبئًا علىٰ الجيران الذين يكسبون لقمة عيشَهم بالكاد.

أما عفاف؛ فقد أُصيبتْ بنزيفٍ حاد وكادت تفقِد جنينَها؛ إلا أنه نجا بأعجوبة من المصير المحتوم.

ربما يكون قد ورِث القوة والجَلَد عن والده البطل الذي سبَق أن أوصاه جنينًا على أمَّه؛ فأراد أن يُوفِي بالعهد، ويكونَ عِوضًا لها عن فقدان الحبيب!

الفصل السادس عشر

استمرت أسرة إبراهيم في كفاحِها من أجل البقاء، وظل إبراهيم الكبير.. الذي يُوقِّرُه الجميع سندًا لهم في محنتهم. وكان بمثابة الأب الروحي لشباب المنطقة؛ فهو لم يُرزَق بأولاد، وكانتْ زوجتُه توفيت منذ وقت قريب.

ورغم رِقَّة حاله؛ فإنه كان أسبوعيًّا ما يُرسل إلى الست زينب نصيبَها من اللحوم التي يبيعُها في محلِّهِ المتواضع، ولا يتواني عن مساعدة كل من يحتاج إليه من أهل المنطقة.

وضعَتْ عفاف ابنَها إبراهيم الصغير؛ ليُخلِّدَ اسمَ والده، وكذلك اسم إبراهيم الكبير؛ الذي كان البطل إبراهيم شعبان قد تَسمَّىٰ من قبل باسمِه.

وتَمُرُّ السنون، ولم ينقطع القائد كريم الشرقاوي عن زيارة زينب؛ فهو لن ينسى أبدًا إبراهيم؛ الذي فداه وافتدىٰ باقي المجموعة. وقد سعىٰ حثيثًا لدىٰ الجهات المختصة؛ حتىٰ صدر قرارٌ باعتبار إبراهيم شهيدًا.

"أنا حاسة إنه حي وها يرجع".. هكذا كانت زينب تُردِّد دومًا؛ فيُجيبها إبراهيم الكبير:

– "احتسبيه عند الله يا زينب.. ابنك بطل".

وظلَّتْ زينب تجلس يوميًّا علىٰ الأريكة؛ بجوار سور السطح تدعو ربَّها وهي مُوقِنة بالإجابة.. وكأنها تنتظرُ مجيئَه!

واستمرت عفاف – التي كانت (وردة الحتة).. كما كانوا يُطلقون عليها؛ من فَرْط جمالِها، ودَماثة خُلُقِها – تَعيشُ مع أسرة زوجِها في الغُرفة المجاورة علىٰ سطح البناية.

تلك الغُرفة التي تزوَّجَتْ فيها بأبسط الإمكانات. تُربِّي ابنَها، وتقوم بالأعمال المنزلية. كما تعلَّمت الحياكة، واشترى لها إبراهيم الكبير مَكِنَة خياطة، وأخذتْ سيداتُ الحي يتردَّدن عليها؛ لتُحيكَ لهنَّ ملابس البيت.

وفي أحد الأيام؛ طرقَت سيدةٌ من الجيران بابَ غرفة عفاف.. التي استقبلتْها؛ ظنًّا منها أنها ترغب في تفصيل جلباب أو ما شابه. إلا أنه سرعان ما فتحتْ عفاف باب غرفتها مرة أخرى؛ لتخرج السيدة.. وهي تقول: "ها أفوت عليكِ تاني؛ يِمكن تغيّري رأيك.. فُوتّك بعافية".

إنها نعمت؛ إحدىٰ نساء الحي، تسكن علىٰ سطح البناية المجاورة.

لها من الأولاد ثلاث إناث ومسعد؛ الذي تربَّىٰ مع إبراهيم.. وكان يلعب معه في الشارع؛ إلا أنه كان مشاغبًا، ويتسبَّب دائمًا لإبراهيم في مشاكل. فقد كان إبراهيمُ يضطر إلىٰ تخليص مسعد من بين أيدي الصبية؛ فينوبَه جانبًا من اللكمات من دون ذنب!

وكان إبراهيم قد أحبَّ عفاف؛ الفتاة الجميلة التي كانت تعيش مع والدتِها وأختِها الصغرىٰ، بعد وفاة الأب الذي كان يعمل فراشًا في مدرسة "بحر البقر" الابتدائية جنوب بور سعيد.. والتي قصفَها اليهود بوحشية أثناء حرب الاستنزاف يوم ٨ أبريل ١٩٧٠م.

وبعدَها قرَّرت الأم الفرار ببناتها – خوفًا من وقوع قصفٍ آخر علىٰ المدينة – لتستقرَّ علىٰ سطح بِناية قديمة من البنايات المواجهة لمبنىٰ ماسبيرو.

من جانبه؛ حاول مسعد – مرارًا وتكرارًا – أن يتقرَّب إلىٰ عفاف، حتىٰ يُثنيَها عن حُبِّ إبراهيم.. لكن دون جدوىٰ!

وبرغم ذلك، لم يتوقَّف عن ملاحقتِها؛ إلا بعدما نهرَه إبراهيم، وتدخَّل في الأمر إبراهيم الكبير.. صاحب الكلمة المسموعة لدىٰ الجميع.

وبعد غياب دام عدة أعوام؛ عاد مسعد إلىٰ المنطقة. وخلال غيابه؛ لم يهتم أحدٌ بأن يسألَ عنه، لكنه ظهر في نسخة جديدة: يقود سيارة حديثة "بيچو ٥٠٤"، ويتعمَّد إحداث ضجيج بها؛ حتىٰ ينتبه لحضورِهِ المحيطون من أصحاب المحال الذين يعرفهم جيدًا!

وفي كل مرة يأتي فيها؛ يظهر مرتديًا ملابس مستوردة، ثم يصعد إلىٰ والدته حاملاً عدة أكياس، ويظل ينتظر رؤية عفاف علىٰ السطح المجاور.

إلا أنها كانت تَمكُث بداخل غرفتها ساعات طويلة؛ تعمل علىٰ مَكِنة الخياطة. لكنها كانتْ تسمع صوتَه خارج غرفتها؛ وهو يتحدث إلىٰ زينب يسأل عن أحوالها، ثم يترك لها بعض الأكياس، قبل أن يَجُرَّ أذيال الخيبة!

وفي كل مرة؛ كان مسعد يرحل بعد أن ييأس من رؤية عفاف! وقد تكرر ذلك المشهد عدة مرات، حتىٰ جاءتها نعمت تَطلُبُها زوجةً لابنها!

سارعت عفاف بالاعتذار من دون إبداء أسباب؛ فلم تكن في حاجة إلى وقتٍ كي تُفكِّرَ في الأمر.. مما دفع مسعد إلىٰ محاولة التقرب من إبراهيم الكبير؛ حيث

عرَض عليه أن يقومَ بتطوير محل الجزارة المتواضع الذي يَملكُه.

كما اقترح عليه ضرورة أن يَقتني ثلاجة جديدة؛ لاستيعاب كمية أكبر من اللحوم. وعرَض عليه أن يُقرِضَه مبلغًا من المال؛ حتىٰ يستطيعَ أن يشتريَ تلك الثلاجة! وقد تردَّد الرجل الطيب في بادئ الأمر!

لمَّا عاد مسعد إلىٰ الحي – بعد اختفائه عنه لعدة أعوام – بدا أن أحوالَه قد تحسَّنتْ بشكلٍ ملحوظ! وقد حاول أن يكسِبَ وُدَّ الجميع؛ بما كان يقوم به من توزيع لحوم علىٰ أهل الحي عن طريق محل إبراهيم الكبير.

فضلا عن: البطاطين المستوردة في الشتاء، ولعب الأطفال التي كان يُوزِّعُها علىٰ الصغار في الأعياد.

والكثير من العطايا التي جعلَت الجميعَ ينسون ما كان يقترِفُه من: مضايقات للفتيات، وإتلافٍ للمحال.. فضلا عن عملِه مع البلطجية في ترويج المُكيِّفات والممنوعات!

وهكذا؛ أصبح مسعد بين ليلةٍ وضُحاها: فتىٰ أحلام الكثيرات، ومثالاً يُحتذَىٰ به بين شباب الحتة!

الفصل السابع عشر

بدأ مسعد يتقرَّب إلىٰ علي وحسين؛ شقيقي إبراهيم، ويُقدِّمُ لهما الملابس المستوردة؛ لتكونَ بديلا عن ملابسهما البالية!

فضلا عن ذلك؛ فكان يُعطيهما بضائع مستوردة؛ ليقوما بتسويقها له، نظير هامش رِبح مُجْزٍ.

إنه عصر الانفتاح الاقتصادي. وكان مسعد من أوائل الذين عرفوا طريقهم إلىٰ المنطقة الحرة ببور سعيد.. حتىٰ صار يمتلِك هناك محلًّا؛ لبيع الملابس في السوق الأفرنجي، ومحلًّا آخر في منطقة الوكالة بالقاهرة؛ يَعرِض فيه الملابس المستوردة، وكذلك ملابس (البالة) المستعمَلة.. والتي تصل من الخارج عبر ميناء بور سعيد!

وكانت زينب تُلاحظ كل ما يدور حولَها، وتستشعر بالخطر القادم إليها لا محالة.. إلا أن الألم الذي تتجرَّعُه منذ سنين قد ألجمها!

حتىٰ جاء يومٌ ذهب فيه مسعد إلىٰ إبراهيم الكبير؛ ليُحدِّثَه في أمر عفاف.. طالبًا منه أن يتوسَّط له لينالَ مُرادَه!

.. فما كان من الرجل.. إلا أنه أبلغَه بالرفض من تلقاء نفسه؛ ومن دون أن يتحدَّثَ حتىٰ في الأمر مع صاحبة الشأن!

فبدأ مسعد يُلمِّحُ له بأنه في حاجةٍ إلىٰ المبلغ الذي كان قد أقرضه له؛ لسداد ثمن بِضاعة تَخصُّه في الجُمرك!

ثم بعد فترة أخبرَ إبراهيم الكبير؛ بأنه مُضطرٌ إلىٰ تقديم الكمبيالات التي بحوزته.. والتي كان قد كتبَها علىٰ نفسِه – نظير اقتراض ثمن الثلاجة – للمحكمة؛ ففهم الرجل المُحنَّكُ أن ذلك تهديدٌ مُقَنَّع له!

وما كان منه إلا أن ردَّ عليه ردًّا أفحمه؛ حيث قال له: "مش أنا إللي أبيع ضميري عشان حزمة فلوس، أعلىٰ ما في خيلك اركبه، والأرزاق علىٰ الله"!

وكان الرجل يعلَمُ أن مسعد لا يستطيعُ أن يُنفِّذَ ما يُلوِّح به من تهديد؛ لأنه بذلك سيكون قد كشف عن قِناعِه المزيف، قبل أن يَصِلَ إلىٰ ما يريد!

وقد تدارك مسعد الموقف بسرعة؛ فقال له: "انتَ صدَّقت إني با أتكلم بجد يا راجل يا طيب.. دا أنا كنت با أهزر معاك".

وذهب الرجل إلىٰ منزل زينب، وطلب أن يُقابل عفاف.

- "عفاف يا بنتي.. خللي بالك من التعبان مسعد .. اوعي تِضعفي أدام الإغراءات.. النضافة جوه النفوس، مش بالفلوس.. وهو عُمره ما ها يبقىٰ نضيف".

ثم انصرف الرجل، بعد أن قال لعفاف ما يُمليه عليه ضميرُه. لكنَّ مسعد شاهدَه؛ وهو خارجٌ من البِناية التي تَسكُن علىٰ سطحِها عفاف، فأدرك أنه كان يُحذِّرُها منه.

مرت أسابيع لم يقف خلالها مسعد مكتوف الأيدي؛ بل كان يتسلَّح بكل ما يستطيع، حتىٰ يتمكَّن من المعاودة لهدفه مرة أخرىٰ!

.. إلىٰ أن جاء يومٌ؛ خرجت فيه عفاف لشراء بعض الأقمشة ومستلزمات الخياطة؛ فتبِعَها مسعد إلىٰ وِجْهتِها (الوكالة)، حتىٰ وجدَتْ نفسَها أمامه؛ وهو ينظرُ إليها مبتسمًا.

ألقَىٰ السلامَ عليها، وطلَب منها أن يستضيفَها في المحل الخاص به لدقائق؛ لمناقشة أمرٍ مهم. اعتذرت عفاف واستدارت لاستكمال طريقِها؛ لكنها توقَّفتْ عندما بدأ يتحدث إليها قائلا:

- علىٰ فكرة أنا اشتريت البيت إللي أنتم عايشين فيه لما الحاج/ عرفة (الله يرحمه) مات؛ ولاده اكتشفوا إن

أبوهم ما كانش بيحصِّل الإيجارات من السكان من سنين طويلة.. وقالوا بدل ما يرفعوا قضايا عليكم؛ يبيعوا البيت ويمشوا.. وسابوا لي أنا الحكاية دي أتصرف فيها بمعرفتي.

وكمان أنا اشتريت البيوت إللي حواليه.. والبيت إللي كانت أمي قاعدة فيه، قبل ما أنقلها في شقة يِرمَح فيها الخيل!

وكمان بيت عم محروس؛ إللي أمك وأختك الصغيرة ساكنين فيه.

ونسيت أقول لك: إن عم إبراهيم الكبير كاتب علىٰ نفسه كمبيالات، علشان التلاجة إللي اشتراها، وشكلي كدا ها أحجز علىٰ المحل بتاعه!

أما علي وحسين؛ فدول مشكلتهم كبيرة أوي.. أخدوا مني بضاعة يتاجروا فيها بأكثر من ألف جنيه، وما سددوش تمنها!

.. أقول كمان ولا كفاية كدا!

.. تعالي يا بنت الناس نقعد نتكلِّم؛ دا الكلام لسه ها يحلو!

استدارت عفاف، ثم نظرت إليه في ذهول؛ وكأنَّ لسان حالها يريد أن يقولَ له: هل هناك أشخاصٌ بتلك الوضاعة؟!

استطرد مسعد قائلا:

- أنا مش وحش قوي كدا.. أنا عايز أتجوزك.. ولو وافقتي ها تسكني في شقة عم عرفة؛ يعني تحت الست زينب، وابنك ها يتعلم ويتربَّىٰ أحسن تربية، وها أنسىٰ الكمبيالات إللي علىٰ عم إبراهيم.

وعلي وحسين.. ها يشتغلوا معايا، وها يكملوا تعليمهم.

- أنا ها آجي بكرة، ومعايا المأذون.. رتِّبي نفسك.

لم تنطِق عفاف بكلمةٍ واحدة. وعادتْ إلىٰ سطح البناية التي تَقطِن فيها من دون أن تشتريَ شيئًا، وجلسَتْ تنظر حولَها وعيناها لا ترىٰ إلا جدران الطوب الأحمر والسقف المتهالك!

فذلك هو المكان الذي شهِد أسعد أيامِها مع حبيب عمرها. وبرغم أنها راضية بالعيش في ذلك المكان المتواضع؛ فإنها الآن أصبَحتْ مُهدَّدة بالطرد منه.

وليس هي فحسب؛ بل إن معظم جيرانِها وأهلِها.. أصبحوا أيضًا مهدَّدين بالتشريد، إذا لم توافق علىٰ أن تُصبحَ زوجةً لمسعد!

قضَتْ عفاف ليلَتها من دون أن يُغمِضَ لها جَفْنٌ؛ وهي محتضنة إبراهيم الصغير.

لم تتحدث في الأمر مع أحد؛ فقد عرَفتْ أنه ليس أمامَها اختيار، حتىٰ حضر ذلك الكائن في اليوم التالي وبصحبتِه المأذون.

قابلَه عليٌّ وحسين بترحاب من دون أن يَفهما سبب حضوره، أو سبب اصطحابه ذلك الشيخ الذي يحمِلُ في يدِه دفترًا!

وقد ظلَّتْ زينب تنظر إليهم؛ وقد أدركت الموقف. وهنا طلَب مسعد من عليّ أن يدعو عم إبراهيم الكبير؛ فحضر علىٰ الفور، ثم نظر مسعد إلىٰ الحضور؛ مُتصنِّعًا الاستغراب:

– هو أنتم ما تعرفوش إني ها أكتب علىٰ عفاف ولا أيه؟

– توكَّل علىٰ الله يا مسعد، واقصر الشر!

.. هكذا رَدَّ عم إبراهيم.

– يا عم إبراهيم: دا أنا عامل لك خاطر؛ علشان تكون وكيل العروسة.

– أنا با أقول لك: خُد الراجل الطيب.. إللي انتَ جايبه معاك دا، وتوكَّل علىٰ الله!

وفجأة.. تخرُج عليهم عفاف من غرفتها؛ لتقطعَ الحوار الذي كان علىٰ وَشَك الاحتدام؛ وهي تقول:

أنا موافقة علىٰ الجواز. مسعد وعدني إني ها أسكن في شقة عم عرفة، ثم نظَرتْ إلىٰ زينب واستكملت حديثَها: يَعني معاكِ يا أُمي، ما هو اشترىٰ البيت، والبيوت كلها.

وإبراهيم ها يتربّىٰ في حُضنِك، وها يتعلِّم كويس.. وعليّ وحسين ها يكملوا تعليم.. وأمي وأختي مش ها يتبهدلوا في الشوارع.. وعم إبراهيم ها يفضل محله مفتوح.

.. هكذا شرحت عفاف الموقف في كلماتٍ مُوجَزة ومُوجِعة.. فما كان من عم إبراهيم إلا أنه انصرف؛ وهو يُردِّد: لا حول ولا قوة إلا بالله.. حسبي الله ونعم الوكيل.

لم يحتمل عم إبراهيم أن يكون وكيلاً لعفاف؛ وهي تتزوج من مسعد! فقد كان وكيلَها من قبل.. وهي تتزوَّج من ابنِه الخلوق الذي لم يُنجِبْه البطل إبراهيم!

فما كان من مسعد إلا أن استدعىٰ صبيانَه – الذين يصطحبُهم معه في كل مكان، ثم يتركهم أسفل البناية؛ ليحرسوا سيارته حتىٰ لا يعبَث بها الصبية – ليكونوا شهودًا علىٰ عقد الزواج؛ الذي تولَّتْ فيه عفاف عبء تزويج نفسِها بنفسِها!

الفصل الثامن عشر

أثناء حرب أكتوبر ٧٣؛ لم يلتزم اليهود بقرار وقف إطلاق النار، وقاموا بالعدوان علىٰ القوات المصرية.. بعد صدور القرار بساعتين.

كذلك فعل مسعد؛ فبعد أن التزم بما قالته عفاف علىٰ رؤوس الأشهاد.. رجع عن التزامه بدَمٍ بارد، وجاء في اليوم التالي يطلُب من عفاف أن تنتقلَ للعيش معه في بور سعيد!

وعندما ذكَّرتْه بوعدِه لها أمام الناس؛ هاج وماج، وحدث ما حدث.. حتىٰ انصرف؛ خشيةً أن يُصابَ بسوءٍ، بعدما اصطف الرجالُ للدفاع عن عفاف غير مبالين بمصالحهم الشخصية.. التي قد تكون مُهدَّدة من قِبل ذلك الأحمق؛ الذي لم يلتزم.. كما فعل أقرانه اليهود من قبل!

وما هي إلا أيامٌ؛ حتىٰ رفع قضية يطلُبُ فيها عفاف في بيت الطاعة، بالإضافة لعدة قضايا طرد لمعظم سكان المنطقة!

كما أرسل إلىٰ عم إبراهيم إنذارًا عن طريق المحكمة؛ بضرورة سداد الكمبيالات أو الحجز علىٰ المحل!

وقد تَحوَّل المكانُ إلىٰ ساحةٍ للدعاء علىٰ مسعد؛ الذي وَشِي بأهل الحي الذي تربَّى فيه؛ ولم يكن له عهدٌ ولا ذِمَة!

عاد البطل إبراهيم بعد غياب؛ ليعرِفَ أن والده تُوفِّيَ، بعد أن بحث عن أخبارِهِ في كل مكان.. لكن دون جدوىٰ!

ووجد عائلتَه مُهدَّدة بالطرد، وكذلك معظم أبناء الحي. وأن الظروف قد اضطرت زوجتَه وحبيبة عمره؛ لأن تُصبِحَ علىٰ ذمة رجل آخر.. وها هو يطلبُها في بيت الطاعة!

.. وأخواه مهدَّدان بالسجن، حتىٰ عم إبراهيم الكبير؛ فلم يسلَم من لدغة ذلك الثعبان.. مسعد!

لم يُتاجر إبراهيم بقضيته، ولم يستغل ظهورَه علىٰ شاشة التلفزيون؛ ليطلب المساعدة. ولم يلجأ إلىٰ قائده المُقدِّم كريم الشرقاوي – الذي سبق له أن افتداه بنفسِه – طالبًا منه العون. بل كان علىٰ يقين بأن الله سينُجِيه من الكرب.

ويَشاء الجبَّارُ أن يَجْبُرَ بخاطر إبراهيم؛ الذي عاد من الأسرِ لا يملِكُ شيئًا.. إلا المبالغ التي تلقَّاها من بعض رجال الأعمال؛ عبر برنامج تكريمه.

وقد كانت بمثابة مِنْحة من الله؛ فقد سدَّد: ثمَن البِضاعة عن شقيقيه، وكذلك مبلغ الإيجار، وقيمة الكمبيالات عن عم إبراهيم، وساعد جيرانَه في أزمتهم؛ لكي يُحرّرَهم من قبضة مسعد.

ثم شارك عم إبراهيم بما تبقَّىٰ معه في تَوسِّعة نشاط المحل، حتىٰ أصبح إلىٰ جانب بيع اللحوم يُقدِّم وجبات جاهزة.

وكما يقول المثل الشهير: "الخير علىٰ قدوم الواردين"؛ فقد تحسَّنَت الأحوال المعيشية لعائلة البطل إبراهيم، وكذلك أحوال عم إبراهيم الكبير؛ الذي كان قد تزوَّج من زينب.. التي عادَتْ إليها الحياةُ بعودة ابنِها البطل.

.. ولكن بَقِيتْ مشكلةُ عفاف تُعكِّر صفو تلك العائلة؛ فالأمر في غاية التعقيد: فإبراهيم – الذي لا يزال حيًّا يُرزَق – قد عاد.. فهل تعود إليه زوجته؛ أم أنها – بحكم القانون – أصبحت زوجة لمسعد.. وعليها أن تُطيعَه وتنتقلَ إلىٰ بيتِ الطاعة؟!

"إجراءات التقاضي تحتاج إلىٰ وقتٍ طويل؛ حتىٰ يَصدُر الحكم فيها". هكذا قال الأستاذ/ مدحت المحامي؛ الذي رفَض أن يأخذَ أتعابًا من البطل

إبراهيم، وصمَّم علىٰ أن يَقِفَ إلىٰ جانبِه وجانب عفاف.. فتلك هي أخلاق الشرفاء.

الشهور تَمُرُّ، وإبراهيم يحاول أن يتغلَّبَ علىٰ أوجاعِه من خلال انغماسِه في العملِ.. ليل نهار، حتىٰ اشتُهرَ المطعم الذي كان يأكلُ من خيرِه الغنيُّ والفقير.

أما الأطعمةُ الزائدة علىٰ حاجة الزبائن؛ فكانَت تُعلَّب وتُوزَّع علىٰ الفقراء والمحتاجين؛ فضلا عن الذبائح التي كان يُفرِّقُها علىٰ الأرامل والعَجَزة.

الفصل التاسع عشر

بعد انتظارٍ مرير من جانب إبراهيم وعفاف؛ قضَت المحكمة، بأنَّ عفاف زوجةٌ لمسعد!

كانت الصدمة قوية.. ليس لإبراهيم وعفاف فقط؛ بل لكلِّ أفراد الحي الذين تعلَّقتْ قلوبُهم بإبراهيم.. الذي أنقذَهم من سطوة مسعد، وكان سببًا في إدخال الخير عليهم.

ولذا؛ فقد حاول البعض منهم التفاهم مع مسعد، وناشدوا فيه النَّخوة والرجولة التي لا يعرِف عنها شيئًا.. إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل. وبات يتوجَّبُ علىٰ عفاف تنفيذ أمر المحكمة خلال أسبوع علىٰ الأكثر من إصدار الحكم!

كانَت الأيام تمضي سريعة، وإبراهيم لم يترك بابًا.. إلا وطرقه؛ بحثًا عن مَخْرَجٍ!

وقد باتَتْ عفاف ليلتَها الأخيرة – قبل الرحيل – في كَرْبٍ وحُزنٍ وهي تحتضن إبراهيم الصغير.. الذي كان عليها أن تتركَه في الباكر؛ لتعيشَ مُكرَهةً مع زوجٍ فرضتْه عليها الظروف! وتترك زوجَها البطل؛ الذي لا تعرِف لها زوجًا غيره!

وبينما إبراهيم جالسٌ علىٰ سجادة الصلاة يُناجِي ربَّه ويدعوه؛ تتنزل علىٰ قلبِه السَّكينَةُ.. فيشعرَ أن فرج الله

قريبٌ لا محالة.

في الصباح اصطحبها كلٌّ من: البطل إبراهيم، وعم إبراهيم الكبير إلىٰ محطة القطار؛ لتستقِلَّ القطار المتجه إلىٰ بور سعيد.

دخل الثلاثة المحطة، ثم وصلوا إلىٰ الرصيف الذي سيتحرك من عليه القطارُ.. والمقرر له أن ينطلِقَ بعد عشر دقائق؛ قاصدًا بور سعيد.

بدأ المسافرون ينقلون أمتعتَهم إلىٰ داخل القطار؛ إلا عفاف.. التي ظلَّتْ مُمسكةً بيدِ إبراهيم، حتىٰ دقَّت صافرة القطار مُعلِنةً عن بدء تحركه. فركبت عفاف.. وكان القطار لا يزال يتحرك ببطء، ثم وصلت إلىٰ الكرسي الخاص بها.

ومن شُباك القطار؛ بدأَتْ تبحث عن إبراهيم؛ لتَنعمَ منه بنظرةٍ أخيرة تَمُدُّها بقوة تحتاجُ إليها لمواجهة المصير المحتوم الذي ينتظرُها.. لكنها – ويا للدهشة – لم تجده!

غادر القطار الرصيف، وأخذ يَزيدُ من سُرعته؛ وفي تلك اللحظات أيقنتْ عفاف أنها صارت بمفردِها، وأنها فقَدَتْ السَّنَد والحبيب إلىٰ الأبد. فسالت الدموعُ من عينيها في صمتٍ، ثم فجأةً التفتَتْ إلىٰ صوتٍ يبحَثُ عنها ويُنادِي عليها!

.. إنه إبراهيم؛ الذي قفز إلىٰ داخل القطار.. بينما كان

يتحرك؛ مُعرِّضًا حياتَه للخطر. فلم يستطع أن يحتمِلَ مشهد القطار الذي سيَنطلق ويَسْلُبُ منه رُوحَه! ولم تُفلِح معه توسلات عم إبراهيم له، بعدم اللحاق بها!

كانت عفاف تبحث عن نظرةٍ أخيرة من إبراهيم؛ لتستمِدَّ منها القوة التي تُعينُها لِما هي مُقبِلةٌ عليه.. فوجدتُه ببدِنِه ورُوحِه إلىٰ جانبِها؛ يَضمُّها إليه.. فكانتْ دموعُها تَسيل وسط ذهول وتساؤلات الركاب مِن حولِهم!

لحِق إبراهيم بالقطار عندما بدأ يُغادر الرصيف؛ وكأنه يقول لها: لن أترُكَك أبدًا؛ حتىٰ ولو كلَّفني ذلك حياتي!

ركَنتْ عفاف رأسَها علىٰ كتِف إبراهيم وغفَتْ؛ فهي لم يَغفُ لها جَفْنٌ من ليلة البارحة.. لكنها الآن مُطمئنَّةٌ بوجودِه معها؛ فغلَبَها النُّعاس مِن فَرْط ما شعرَتْ به من أمان.

نظرَ إليها إبراهيم؛ وهي نائمة كالطفلة، ثم تذكَّر أن المرَّةَ الأخيرة التي ركَب فيها ذلك القطار كانَتْ أثناء الحرب. وتذكَّر القوة التي وضعَها الله وقتها في قلبِه وفي قلوبِ زملائه خلال تلك الرحلة.

.. فعلىٰ الرغم من أنهم كانوا يَحملون أرواحَهم علىٰ أَكفِّهم؛ فإنهم كانوا مستبشرين بنصر الله.. وها هو اليوم يضَعُ حياتَه علىٰ كَفِّه مرةً أخرى؛ وكُلُّه يقينٌ بنصرِ الله الذي يَنصُر عبادَه المؤمنين.

الفصل العشرون (الأخير)

بحث عم إبراهيم الكبير في كل مكان عن وسيلة مواصلات تُقِلُّه إلىٰ بور سعيد؛ كي يلحقَ بعفاف وإبراهيم.. لكن من دون جدوىٰ!

فعاد مسرعًا إلىٰ ماسبيرو يستنجد بأهل الحي. فقد كان يخشىٰ علىٰ إبراهيم من مسعد الذي لا تعرِفُ الرجولةُ طريقها إليه!

وقد دخل مُكفَهِّر الوجه علىٰ زينب؛ يبحث عن علي وحسين، علَّه يجد عندهما وسيلةً يمنع بها الكارثة المنتظرة! فإبراهيم بمفرده، ومسعد في بور سعيد له نفوذ!

والأدهىٰ من كل ذلك: أن الحق مع مسعد، وعفاف زوجتُه بحكم القانون؛ فإذا تهوَّر علىٰ إبراهيم، فلن يتعرَّض للمساءلة القانونية!

رفعتْ زينب يديها إلىٰ السماء؛ وهي تقول: "اللهم إني استودعَتُ ابنيَ عندَك؛ فنجِّه من المخاطر"، ثم صاحت:

– روحوا للمُقدِّم كريم الشرقاوي.. أكيد ها يقدر يتصرف.

توجَّه عم إبراهيم وعلي وحسين.. إلىٰ الوحدة التي يَخدِم فيها المُقدّمُ الخلوق الذي يُكِنُّ كلَّ الحُبِّ لإبراهيم؛ الذي فداه بنفسِه أثناء الحرب.

كان الجميع يُسابقون الزمن؛ فمُدَّة الرحلة إلى بور سعيد قُرابة أربع ساعات.. مَرَّ أكثر من نصفِها، وعليهم أن يُسرعوا حتىٰ يمنعوا تلك المواجهة؛ التي لا يَدري أحدٌ عن أي شيء ستُسفر!

أخيرًا وصلوا إلىٰ الوحدة، وطلبوا مقابلة المُقدِّم كريم الذي كان مُنشغلا مع القائد. انتظروه ودقات قلوبِهم أعلىٰ من دقات عقارب الساعة المُعلَّقة علىٰ الحائط!

مرَّتْ نِصفُ ساعة وهم ينتظرون، ثم حضر المقدم كريم وعرَف منهم تفاصيل الأمر. وبدأ يتصل بزملائه في الشرطة العسكرية في بور سعيد؛ طالبًا منهم بشكلٍ وُدِّي أن يذهبوا إلىٰ محل مسعد بالسوق الأفرنجي ليمنعوا كارثة قد تصل إلىٰ القتل.

قصَدَتْ سيارة عسكرية الحي الأفرنجي؛ وبينما كان مسعد يجلس منتشيًا داخل محلِّه؛ لمحَ ضابطين ينزلان منها. ثم سمِع أحدَهما يسأل عنه؛ فأسرع بحَمْل حقيبة سوداء، ثم أخرج منها سلاحًا ناريًّا ووجَّهه إلىٰ

الضابطين اللذين تداركا الأمر بسرعة، وبدآ يتعاملان معه.

وبرغم أنهما لم يُطلِقا أية رصاصة – خوفًا علىٰ أرواح الأهالي – فإن مسعد راح يُطلق النيران في الهواء بشكلٍ هستيري؛ ثم ركب سيارتَه وانطلق مُسرعًا!

وقد استقلَّ الضابطان أيضًا سيارتَهما العسكرية، التي سارت خلفَه حتىٰ تمكَّنا من إيقافِه والسيطرة عليه!

لم يكن الضابطان يَعرفان أن ذلك هو مسعد؛ الذي كانا يسألان عنه.. إلا بعد القبض عليه.

وقد فوجئا بأنه يَحمِلُ "جِهاز لا سلكي" بداخل الشنطة السوداء التي ضُبِطَتْ معه؛ ليُواجِه تهمة التخابر مع إسرائيل!

وصل القطار إلىٰ محطة بور سعيد؛ حيث كانت هناك مجموعة من العساكر؛ وأحدهم يحمل ميكروفونًا ويُنادي من خلاله علىٰ إبراهيم شعبان؛ الذي تشبَّثتْ به عفاف؛ وهو يُجيب الأفراد:

– أفندم.

فأبلغوه بأنه مطلوب في مكتب قائد المحطة. توجَّه إبراهيم بصحبة عفاف إلىٰ مكتب الضابط المُكلَّف

بضبط الأمن في مَحطَّة القطار.. فلم يتكلَّم معه كلمةً واحدة؛ إنما تناول سماعة الهاتف وبدأ التحدث من خلالها:

– كريم باشا.. إبراهيم شعبان مع سعادتك.. أوامرك يا باشا.. أؤمر.

تلقّىٰ إبراهيم الهاتف من ضابط أمن المحطَّة، والقلق يُسيطر عليه.. وإن كانتْ فِطنتُه قد ساعدته علىٰ قراءة المشهد، وتَوقُّع سبَب استدعائه، ثم تلقيه مكالمةً من المُقدِّم كريم.. الذي مِن المؤكَّد أنه عَلِم بما حدث؛ ربما مِن والدته، أو مِن عم إبراهيم الكبير.

وقد بدا واضحًا لإبراهيم أنَّه بات يتوجَّبُ عليه أن يتركَ عفاف لتذهبَ بمفردِها إلىٰ زوجِها؛ طبقًا لقانون البشر.. الذي كثيرًا ما يَظلِمُ، بينما يَدَّعي الذين يُطبِّقونه أنهم بذلك يُرسون قواعدَ العدل!

– أفندم يا كريم باشا.

سادَتْ حالةٌ من الصمت والترقُّب، وقد تعلَّقَتْ عينا عفاف بإبراهيم الذي انفرجت ملامحُ وجهِه؛ وهو يُردِّد: "قول والله يا باشا.. قول والله.. الله يِبشَّرك بالخير يا باشا.. أنا اتردَّت فيَّا الروح.. اللهم لك الحمد.. ربنا يِخليك لينا يا باشا.. ألف سلامة يا باشا".

أقبَل إبراهيم علىٰ حبيبة العمر مقبِّلا يديها، بينما دموعُ الفرحِ تَغمُر وجهَه.. ثم انطلق بها ليلحقا بالقطار العائد إلىٰ القاهرة؛ حاملا داخل قلبِه فرحةَ الجَبْر؛ ممزوجةً بذكريات النصر!

وتمرُّ السنون: أعوامٌ وراء أعوامٍ، وأعودُ إلىٰ داخل مبنىٰ ماسبيرو.. لكني تلك المرة؛ لم أَكُن بصُحبة والدتي.. إنما اليوم أنا ضيفةٌ في برنامج إذاعي شهير، لمناقشة إحدىٰ الروايات التي أسردُها!

.. فلم أَعُد أرسم المَشَاهِدَ بالألوان.. كما كنتُ أفعل وأنا طفلة؛ بل أصبَحتُ أُجسِّدُها من خلال سطور الروايات التي أكتبُها بقلمي، ومن خلالِها أُحاولُ أن أرسمَ البهجة علىٰ شفاه القراء.

وقد دفعني الحنينُ إلى أن أُطِلَّ علىٰ أثر البنايات القديمة التي لم تَعُد موجودة.. والتي حلَّتْ مَحْلَّها أَبراجٌ شاهقة!

فأتذكر سطَحَ زينب؛ أُمِّ البطل إبراهيم شعبان، وعفاف وابنِهما إبراهيم الصغير!

.. وتعودُ إلىٰ ذاكرتي صورةُ المَمر الضَّيقِ؛ الذي كان يَضُمُّ مَحَلَ جزارة عم إبراهيم الكبير، وكذلك باقي المحال البسيطة التي انمَحتْ ولم يَعُد لها اليوم أي

أَثر.. وكأنه لم تَكُن هنا – ذات يومٍ – حياة، ولم يكن هنا بشر؟!

.. اندثرتْ تلك البيوتُ؛ التي كم أنجبَتْ أبطالاً لهم قلوبٌ مليئة بالدفء! وتحوَّلَتْ الأَزِقَّة التي عاشوا فيها إلىٰ حيٍّ راقٍ؛ سوف يَسكنُه مجموعةٌ من الأغنياء.. ربما لا يُبالون كثيرًا بالهُوية ولا التاريخ!

.. وبرغم كل شيء؛ ستظل تلك المِنطقةُ – وغيرها من أحيائنا الشعبية – دائمًا وأبدًا شاهدةً علىٰ أرقىٰ قِصص الحب والعطاء والبطولة.

.. ومهما تتغيَّر الأبنية، وتمرُّ الأيام والسُّنون.. سيبقَىٰ الأثرُ الطيب، وستبقىٰ الذكريات.

◆انتهت◆

القاهرة ٨ نوفمبر ٢٠٢٢م